تحوّلات في مَملكة الأحْلام

يحيى فضل اللَّه

Willows House
منشـــورات
ويلوز هاوس

تحوّلات في مَملكة الأحْلام

يحيى فضل اللّه

Deposit Number: 32421 / 2021

ISBN: 978 - 977 - 6597 - 46 - 2

© Willows House 2021

الطبعـة الأولــى: 2021 منشورات ويلوز - جوبا / القاهرة

جميـع حقـوق النشـر محفوظـة للناشـر، ولا يحـق لأي شـخص أو مؤسسـة أو جهـة، إعـادة إصـدار هـذا الكتـاب، أو جـزء منـه، أو نقلـه، بـأي شـكل أو واسـطة مـن وسـائط نقـل المعلومـات، سـواء أكانـت إلكترونيـة أو ميكانيكـة، بمـا في ذلـك النسـخ أو التسـجيل أو التخزيـن أو الاسـترجاع، دون إذن خطّـيّ مـن الناشر.

All copyrights are reserved to the publisher, and no person, institution or entity has the right to reissue this book, or part of it, or transfer it, in any form or medium of information transmission, whether electronic or mechanical, including copying, recording or storing Or, without written permission from the publisher

جميع الآراء الواردة في هذا الكتاب تعبر عن رأي كاتبها ولا تعبر بالضرورة عن رأي النَّاشر

Willows House
منشـــورات
ويلوز هاوس

جنوب السودان، جوبا، كاتور، مربع ٨ جوار مركز جبران

www.willowshouse.net
www.jubabok.com
gatawillow@gmail.com
gmail.com@willowshouse3
+211927302302

تحوّلات في مَملكة الأحْلام

يحيى فضل اللّه

الإهداء

إلى شركاء الجرح والحلم والفكرة

عبد العزيز العميري

مصطفى سيد أحمد

عمر الطيب الدوش

حيث دائمًا يشتهي الوتر الغناء

1

قبـل ثـوانٍ كان هنـا، لم يقـل شـيئًا حـين خـرج ولكنـه قـال الكثـير حـين نظـر إليَّ مليًّـا، وكأنـه يسـتدعي ذلـك الزمـن الـذي كنـا نفكـر فيـه في الـزواج.

"آي واللـه كلمتـو، قلـت ليـك كلمتـو، قلـت ليهـو نفـس الـكلام، علـيَّ اليمـين كلمتـو، يـا خـي مـا قلـت ليـك كلمتـو، طيـب، أنـا أعمـل شـنو؟ ده واحـد مغفـل".

يبـدو أن "عثـمان أبـو وجعـة" دخـل في الحـد الفاصـل بـين الصمـت والصراخ.

"يا سلام على ذوقك يا مريم بنقز".

كان حـين يقـول لي ذلـك أحـس بأننـي قـد نجحـت، جـاءني مـرة بعـد أن مـلأت لـه الزجاجـة والـكأس في يـده، نظـر إليَّ طويـلًا، وضـع الزجاجـة وكأنـه يـداري عنـي فكـرة خبيثـة، أقـول ذلـك لأنـه كان يرتجـف خجـلًا، اسـتقام مـن انحناءاتـه وانحنـى سريعًـا ليضـع الـكأس بقـرب الزجاجـة، اسـتقام ثانيـة بعـد أن سـمع رنـين اصطـدام الـكأس بالزجاجـة، قـال لي بصـوت مـشروخ ومـتردد:

- مريم... أنا خلاص.. أنا.. يعني خلاص.

قلت أنا مقتربة من ضياعه:

- خلاص شنو يا أبو وجعة.
- خلاص.... خلاص تبتا.
- معقول ده يا أبو وجعة؟
- معقول يا مريم.
- بس يكون البتاع الليلة كعب.
- أهو ده الما معقول، لا والله تمام.
- يعني خلاص توبة؟!

لم يـرد عـلى سـؤالي، خفـت مـن أن أفقـد صديقًـا، أجـل، كان صديقًا، وكان بريئًـا، إنسـان يتمتـع بصـوت مميـز وطبـع خـاص، لكـن، خـوفي لم يـدم طويـلًا، لأنـه جـاءني في الغـد، جـاء كأول الحاضريـن كعادتـه، جـاءني كطفـل وديـع وأخـذ الزجاجـة وكأن لم يحـدث شيء بالأمـس، تعمـدت مواجهتـه بالصمـت المغلـق، لأني عرفـت السـبب فيـما حـدث بالأمـس، في اليـوم السـابق لمـا حـدث.

- أب وجعه إزيك، سلامات يا مريوم.

أخيراً، جاء هذا الوغد.

- أهلًا جاد المولى.
- اتفضل بي جاي يا جاد المولي.

- شكرًا يا أبو وجعة، يلا، اعزف يا بنقز.
- قزازة ولا نص؟
- لا، نص، ما تنسى الضواقة.

كنت أقول، في اليوم السابق لما حدث، خرج "أبو وجعة" من هنا، خرج مترنحًا حتى الدوار وحين مر بالمدرسة الابتدائية التي يدرس فيها، كان التلاميذ قد خرجوا من درس مسائي تأخر فرأى التلاميذ أستاذهم يقع ثم يقف ليقع مرة أخرى، في الصباح وحين سأل الأستاذ "عثمان أبو وجعة" أحد التلاميذ عن موقع بيت المقدس، أجاب ذلك التلميذ قائلًا:- (في بيت مريم بنقز.)

كان ذلك التلميذ وقحًا فاتخذ هو قرارًا ضعف أمام تنفيذه، لم أفرح لأن زبونا عاد لي بعد الآن كاد يتلاشى ولكني فرحت لأنه كان رمزًا لمملكة الأحلام التي أديرها أنا، لو ذهب الوغد "جاد المولى" كنت سأقيم احتفالًا أعلن فيه فرحي، يبدو أنه لن يذهب حتى نذهب نحن جميعًا، كل خيوط الأماني التي نسجتها حولي كان وراء أن تتقطع "جاد المولى"، لماذا يصر علي المجيء وهو يعلم تمامًا كراهيتي له، أمقته بشدة، لا أنسى حين صفعني على وجهي حتى أصابني الدوار وحين تماسكت قال لي والغضب يحتل عيونه:

- أنتِ طلقانة.

لم أُفاجأ وقتها لأن الطلاق كان مطلبي، إلا أن ما رأيته على وجه " عبد القادر "، كان كل وجه "عبد القادر " يبكي بحرقة، في حين تبدو نظرة الشماتة الخفية على عيون " الفاضل " شريكة

في الـدكان، اللـه يرحمـه، لا أدري لمـاذا يحيـط بي كل هـذا المـاضي، " جـاد المـولي "، زوجـي الأول يـأتي إليَّ هنـا وحـين تـدور بـه النشـوة لا يفتـأ يقـدم لي اعتـذارات مختلفـة الأسـاليب وبطريقـة تجعلنـي أحـس بخبثـه.

- مريم، نحاول نرجع لي زمان.
- ممكن تحترمي الندم يا مريم؟
- و الله ما مني.

لا أعـيره انتباهًـا ويزعجنـي كثـيرًا، ووصـل بـه السـكر إلى الخـوف منـه، باغتنـي مـرة ووضـع يديـه عـلي ركبتـي وبـكى بـكاءً شـديدًا لدرجـة الارتعـاش وبصـوت بـاك كان يقـول لي:

- بريدك، بريدك يا مريم.

انتفضـت مـن عـلى البنـبر فوقـع هـو عـلى الأرض وجعـل يحـرك رجليـه كحـمار يحـاول أن يتخلـص مـن حكـة في جلـده حتـى أثـار غبـارًا حولـه، وكان لا يـزال يبـكي وهـو يعتـذر بـين فينـة وأخـرى.

- أديكم كم يا عمر؟
- قزازة.
- الليلة "علي" وين؟
- سافر، "علي" سافر.
- متين الكلام ده؟

- الليلة، الصباح.
- ما كلمني.
- سفرة مفاجئة.

لا أدري، لماذا يقفز "علي" إلى ذهني كلما شعرت بحاجتي إلى رجل، ليس هذا الأمر سهلًا لأني امرأة تعرف طعم الرجال، "علي" كان دائمًا مرحًا وممتلئًا بالنشاط، حين ينظر إليَّ أحس بأنوثتي، أحس بها تتفجر، لم يكن ذلك من خبث في نظرته ولكن هذا ما أحس به نفسي، ترى لماذا ترتبط هذه العاطفة النقية دائمًا بالخبث؟ كانت رغبتي ميتة لأنه كان صديقًا لـ"عادل"، ابني، هذه الليلة تبدو ثقيلة، ليس الليلة وحدها، يبدو أن الحياة نفسها صارت مملة، رائحة الخمر، أنفاس السكارى تلك الضجة بين الهدوء المفتعل، بعض المشاكسات، جلستي اليومية على هذا البنبر العتيق.

تمر بي الأحداث وأنا أوزع النشوة على أعضاء مملكتي، مملكة الأحلام كما أسماها "علي"، دخان السجائر يشعرني دومًا بالسأم، لم أستطع التخلص من هذه العادة التي اكتسبتها وأنا في المدرسة الوسطى، كنت أخفيها حين كنت معلمة، لا أخفي شيئًا الآن، أنا معلنة باعتباري جزء من ليالي هؤلاء الباحثين عن النشوة والاختمار، يدفنون أحلامهم عندي، أنا نفسي أحلم، قبل ثوانٍ كان هنا، خرج ولم يقل لي شيئًا، خطابات الصبا ما زالت عندي، أسترجعها كلما حنت نفسي إليه، لا أنساه أبدًا، لا أدري لماذا وأنا التي تنقلت بين الرجال، كل هذه الحياة التي عشتها وأنا أحاول أن أمتلك حريتي وسط ضجة وصيحات الاستنكار وتلك النظرات

المقيـدة وسـط كل هـذه العقـول المختمـرة والباحثـة عـن الصحـو والأمـاني، وسـط كل أولئـك الرجـال لم أسـتطع أن أنسـاه يومًـا، كأني صبيـة تنتظـر فـارس الأحـلام، لا أدري لمـاذا حـين نظـر إليَّ هـذه الليلـة شـعرت بـأن عـليَّ أن أخفـي مـا بصـدري خجـلًا وأنـا التـي هزمـت في داخلهـا خجـل كل النسـاء، مـا زلـت أحلـم بـه زوجًـا، هـو لم يتـزوج أبـدًا، آه، مـن كل هـذا الحنـين.

الشـارع دخـل عليـه الليـل، خرجـت أنـا ابنـة الرابعـة عـشر مـن منـزل جـارة لنـا أقصـد بيتنـا، وجدتـه يقـف في طرف الشـارع، مشاكسًـا كان، لا يهتـم إلا بمـا يريـده، مـررت بقربـه، لم أسـلم عليـه، تابعنـي، كنـت أحـس بـه يلهـث خلفـي؛ خفـت، اقـترب منـي وبيـده اليـسرى اعتـصر مكمـن الأنوثـة البكـر في صـدري وذهـب، طـوال الليـل وأنـا أحـس بأصابعـه تعبـث بصـدري تـارة، وتـارة حانيـة، كان كل شيء فيـه يدعـوني إليـه، لم ألـبِّ هـذا النـداء، ممانعـة كنـت وكان لحوحًـا وأنـا أسـتمتع بإلحاحـه وممانعتـي، ضـاق بي يومًـا فكتـب إليَّ يريـد مقابلتـي، لم أذهـب إليـه وأنـا راغبـة، فجـاء إليَّ البيـت، سـلم عـلى أمـي وسـلم عـليَّ وأمـي تقـف أمامـه، لم يهتـم بهـا كثـيرًا، قـال لي ويـدي مـا زالـت في يـده يعتصرهـا:

- أنتِ كويسة يا مريم؟
- كويسين.
- بس أنا ما كويس.
- ....

- اتحركي شويه.

اعتــصر يــدي بشــدة وذهــب، أمــي نظــرت إليــه ونظــرت إليَّ وابتســمت، جــوف السـنين لا ينضــب وهــا هــي ذاكــرتي تحتفــي بــه، أحـس بـه صبيًّا، أحـس بـأني صبيـة ومـا زلنـا نفكـر في الـزواج، أنـا أفكـر في الـزواج، لا يهـم، العـودة إلى أول حلـم، خيوطـي لا بـدَّ أن تتمسـك بـه.

- إزيك يا خاله؟

- أهلًا يا "منى"، شديدة؟

- "علي" ختالي كتاب عندك؟

- آآي، اقعدي، عثمان ما جاء؟

- بجي بعد يومين.

تحركـت إلى الداخـل وعـدت أحمـل إلى "منـى" ديوان شـعر لــ" نزار قبـاني" بعنـوان "طفولـة نهـد"، خطفتـه منـي أصابـع "منـى" بلهفـة وفي خروجهـا مـرت أمـام "عمـر" الـذي اسـتعان بنشـوته وقـال لهـا:

- شنو يا جميل؟

فوجدتني أصرخ في "عمر":

- هـوي يـا "عمـر" امسـك أدبـك، اللـه، لـو تنسـوي كـده، تـاني مـا تجـي هنـا، أوعـك، سـامع؟ بـلا مسـاخر وكلام فـاضي، امسـك أدبـك، سـامع؟

لا بـدَّ مـن الزجـر، لا بـدَّ مـن الهيمنـة وإلا ضاعـت مملكـة الأحـلام، أنـا امـرأة تفعـل مـا تريـد، تعلمـت ذلـك مـن حيـاتي، تعلمـت رغـمًا عنـي، حاولـت أفعـل مـا يريـدون، لم أتمتـع بحريـة الفعـل وكـدت أفقـد حريـة أن أعيـش، حـين كنـت معلمـة كانـت حيـاتي عاديـة، أحلامـي عاديـة، "عبـد الباسـط"، حلمـي الأول، ضـاع منـي لأن والـده رفضنـي، كل العائلـة رفضتنـي، لا يحـق لابنهـم أن يتـزوج مـن امـرأة تعمـل وتختلـط بالرجـال، إضافـة إلى سـبب مبـاشر ومعلـن وهـو أن أمـي صاحبـة "إندايـة"، "عبـد الباسـط" رفـض أن يتـزوج حتـى الآن، "جـاد المـولى" تزوجنـي وحـاول أن يجعلنـي تحـت إرادتـه، يحركنـي متـى وأينـما يشـاء، تمـادى حـين طلـب منـي تـرك العمـل، طلبـت الطـلاق، رفـض، تحـررت مـن تلـك العلاقـة الخـاسرة بـذكاء الأنثـى، وضعـت في طريقـه رجـلًا وهميًّـا، صفعنـي وطلقنـي، "عبـد القيـوم" زوجـي الثـاني اسـتطاع أن يكتـم مـا بنفسـه مـدة العـشر سـنوات التـي قضيتهـا معـه وأنجبـت لـه "عـادل" و"بثينـة" وحـين أتيتـه يومًـا أبـشره بترقيتـي إلى وظيفـة "ناظـرة" تجهـم وقـال لي:

- فرحانة على شنو؟
- و ليه ما أفرح؟
- بعد دا حقو تسيبي الشغل.
- يا سلام؟ وليه؟
- أنا قلت كده.
- و أنا قلت لا.

ظـل يطـاردني بـترك العمـل، كنـت أندهـش لذلـك لأنـه يعمـل معلـمًا مثـلي ومـدة طويلـة، مـا زال يلـح عـليَّ وكانـت النتيجـة أن طلقنـي، حينهـا مزقـت خطـاب الترقيـة أمامـه وأخـذت معـي ابنـي "عـادل" وابنتـي "بثينـة"، تحولـت مـن التعليـم إلى مهنـة أجـد فيهـا أرضًـا لأحلامـي، مهمـة تعلمتهـا مـن أمـي التـي جعلـت منـي معلمـة ومـن أخـي ضابطًـا في الجيـش، أبي، لا أعـرف عنـه شـيئًا سـوى أنه سـافر بـلا عـودة، أخـي أيضًـا سـافر دون عـودة، فتحـت "إندايـة" أمـي مـن جديـد مدفوعـة بالتحـدي والتمـرد عـلي كل شيء، التمـرد حتـى عـلى نفـسي، جـاءني "عبـد القيـوم" حـين سـمع بذلـك حـاول ضربي وبعـد نزاعـات اسـتطاع أن يأخـذ منـي "عـادل" و" بثينـة" وظللـت أنـا كـما أريـد، ابنـي " عـادل" كان يـأتي إليَّ وبمـرور الزمـن تحـول "عبـد القيـوم" إلى زبـون مـن زبائنـي، كان يأتينـي باسـمًا، كنـت أحـس بهزيمتـه، لم أفـرح مثـل فرحتـي تلـك أبـدًا، كان ذلـك حـين جلـس "عبـد القيـوم" و"عـادل"، الوالـد والابـن، جلسـا عنـدي وبينهـما نشـوتي، فرحـة، كنـت أسـترق السـمع إليهـما وأنـا لا أصـدق.

- لكن المسألة يا أبوي ما بقيسوها كده.
- ما في مقاس غير دا.
- لا، ما في المسألة السياسية والاقتصادية والاجتماعية.
- لا، كده معليش.
- عشان الناس ما تتكلم ساكت.

كنـت أحـس بأننـي أديـر مملكـة، مملكتـي أنـا، فيهـا كل مـا يتعلـق بحيـاتي، بقـي لي حلمـي الأول الـذي أحـس بـه يبتعـد عنـي، "عبـد

الباسـط"، لكنـي مـا زلـت أحـاول تحطيـم ذلـك الصمـت الغريـب، يظل صامتًـا كأنـه فقـد القـدرة عـلى الـكلام، لكنـي، سـأقوده إلى الحديـث.

- الفاتحة يا ناس.

لا يمكـن أن يحـدث هـذا -لكـن المـوت فـوق التصـورات- "عـادل" ابنـي كان يقـول دائمًـا إن المـوت سـبيل مـن سـبل الحيـاة، فقـدت مملكـة الأحـلام واحـدًا مـن الفعالـين فيهـا، ذهـب وتـرك وراءه اللقـب الـذي منحـه لي -"مريـم بنقـز"-، كان يغنـي وكنـت أغنـي معـه، حـين حدثتـه عـن مقـدرتي في العـزف عـلى البنقـز، كنـت تعلمـت ذلـك حـين كنـت طالبـة، تحـدث معـي جـادًّا في تكويـن فرقـة غنائيـة، كان دائمًـا يحلـم بالأشـياء الجميلـة، كنـت أعـزف عـلى البنقـز وأغنـي معـه.

بفضلـه عـرف كل الشـاربين أرقـى أنـواع الشـعر، سـمعوا أشـعار السـياب ولـوركا وجـماع، عبـد الوهـاب البيـاتي، محمـود درويـش، صلاح عبـد الصبـور، أمـل دنقـل، كان يلقـي الشـعر فيصمـت الجميـع ويطالبـون بالمزيـد، كان كل جمعـة يحـرر جريـدة مـن خمسـة أوراق يسـميها "مملكـة الأحـلام" وكان يـوم الجمعـة يومًـا ثقافيًـا نختمـه بالغنـاء، كأني كنـت أعلـم أن هـذا اليـوم ستسـيطر عليـه الكآبـة، تـرى كيـف تكـون الجمعـة القادمـة؟

ذهـب الجميـع يحملـون أحزانهـم وتركـوني ودمعتـي والأحـزان تتراقـص حـولي، اليـوم تتراقـص في هـذا البيـت الأحـزان، هـل كان لزامًـا علينـا أن نفقـد "عـلي"، هـل مـات "عـلي"؟ قلبـي يحدثنـي أنـه يحيـا داخـلي، العربـة التـي هشـمت رأسـه لم تقـوَ عـلى تحطيمـه هنـا، في هـذا القلـب الكسـير.

- قلت لك اسكت يا ولد، قليل أدب، أنت عارف "مريم بنقز" دي كانت شنو؟ جاوب، جاوب يا غبي، دي كانت ناظرة مدرسة، فاهم؟ يا حمار، وقف حمار الشيخة في العقبة.

ذهب الجميع، ما زال "عثمان أبو وجعة" موجودًا ولكنه خارج معرفته بما حدث، متقوقعًا في هواجسه وأحلامه، مات "علي" و"عثمان أبو وجعة" يفكر بصوت عالٍ، نظرت إلى شجرة ليمون صغيرة وقلت لنفسي ستبقى مملكة الأحلام..

2

النهايـات المفاجئـة، هزيمـة كل التوقعـات، ذلـك الخـوف الأبـدي، الصمـت المصاحـب لضجـة الأفـكار وصخـب الخيـالات، الهـروب مـن الحيـاة كي نعـود إليهـا، ليـس سـهلًا أن تعـود المـسرات إلى مملكـة الأحـلام، الـشروع في الحلـم يبـدو جريمـة أمـام هـذا الفقـد العظيـم، لا بـدَّ أن نقـف طويـلًا، وقفـت طويـلًا أمـام قـبره، حاولـت أن أحادثـه، ولكـن، كان هنـاك الشـعور باللاجـدوى وذلـك الصمـت الأبـدي.

- الحكاية ما كدا يا مريم.
- ....
- العشق أكبر حرية في الوجود.
- يا علي ده كلام ساكت، الحرية وينا هسه؟
- شوفي يا مريم، لما تحلمي بي عبد الباسط، في أي قيود في حلمك؟
- ما حلم ساكت.
- خـلاص، دي حريـة كبـيرة، الشـاعر إدريـس جـماع قـال، "كالمنـى أنـت طليـق كانبعـاث النغـم"، شـوفي، كالمنـى أنـت طليـق، دي حريـة متناهيـة.

ما زلت يا "عبد الباسط" تمارس هذا الصمت الطويل، لا بدَّ من تفجيرك، لا بدَّ من ذلك، العودة إلى الصبا، مطاردات الأزقة، العتمة حين يهزمها القمر، الأصابع حين تعبث بمكن الأنوثة في صدري، الشوق إلى المجهول ولا بدَّ من تفجيرك، جدار الصمت آن له أن ينهار.

الخطى تتثاقل، العيون ما زالت تبحث عنه، "أبو وجعة" صمت، لم يعد يحلم بصوت عال، يخطط على التراب، يكتب ويمسح، دمعتين على خده الخشن، لا يقوى على إزالتهما، حين سمع بوفاة "على"، انهار، الحياة تحاول أن تتخلص من قيود الموت، "عبد القيوم" جاءني وقال لي من خلال دموعه:

- رسلت لعادل تلغراف..

"عادل" ابني كان صديقًا لـ"علي"، زامله حتى الثانوية، ترك "علي" المدرسة وعمل في كشك مرطبات حين نكبت أسرته بوفاة والده، "عادل" كان لا يزورني، لم أكن أحلم أن أراه في بيتي الذي هو "إنداية"، حتى جاءني "علي" يومًا.

- البشارة يا مريم.
- بشارة خير، في شنو يا "علي"؟
- أصلك ما حتتوقعي.
- أها شنو؟
- عادل.

- عادل؟ مالو؟

- حيجيكِ هنا، بكره.

لم أصدق، كنت لا أحلم بذلك احترت فيما أفعل لو جاء، كيف أزيح عن ذاكرته كل ذلك العبء الأخلاقي؟ قررت أن أكون كما أنا، متماسكة بتمردي الأزلي، لم أحاول تغيير حياتي، قصدت أن يأتيني بحضور كل أعضاء مملكتي، وجاء "عادل"، أصبح فرحي ممتدًا، بعدها تكسرت كل الحواجز بيننا، لم يحاول أن يجرح شعوري أبدًا، "علي" دائمًا كان يقدم لي الفرح الممتد، تلقائية أن تمارس حياتك، كان يراهن على التلقائية بينه وبين الناس، "عادل" سيلملم ذكرياته المتناثرة كي يفهم الحياة أكثر، "عبد القيوم" جاءني أول مرة مع "عادل" وأصبح بعدها يتردد عليَّ كثيرًا، لا يحاول أبدًا أن يحادثني عن علائق تلك الشراكة الحميمة بيننا في الحياة، لا يحكي حتى عن الأولاد، لكنني أحس بذلك الود الشفيف بيننا، أحس به مطمئنًا بقربي.

خطوة حزينة، نظرة تبحث عن معنى هذا الوجود، "الشيخ مصطفى الدرويش"، جاء والحزن يلف حركاته، كتلة من القلق، معذب بمفارقته لذلك الهدوء المتأمل، تتساقط حبات السبحة بين أصابعه بسرعة مذهلة، كان "علي" يضحك حين تتساقط حبات السبحة ببطء ويقول شيخنا نعنش..

نظر " الشيخ مصطفى الدرويش" إلى حيث كان يجلس "علي" دائمًا بقرب الحائط، جلس على رجليه قرفصاء حزينًا، توقفت حبات السبحة تمامًا عن التساقط بين أصابعه، وضع يده اليسرى

على التراب وبكى بصوت متهدج، بكى معه "عبد القيوم"، وقف "عثمان أبو وجعة" وألصق رأسه بالحائط وبكى بصوت عميق، نزلت مني دمعتان، كلنا انتشرنا حزنًا وتناثرت دموعنا هذه الليلة للبكاء، كلهم سيأتون ويبكون "علي"، نسيج الفقد مطرز بالدموع، "الشيخ مصطفى الدرويش" كان "علي" يداعبه ساخرًا من صوفيته إلا أن هذه المداعبة سرعان ما أخذت طابعًا جديًا وأصبحت دعوة لنقاشات طويلة حول التصوف والمتصوفين.

- هسه يا شيخ مصطفى، أنت قريت طبقات ود ضيف الله؟
- لا، ما قريتو.
- طيب، عامل لي فيها صوفي كيف؟
- مالو، أقراهو.

ويحكي "علي" عن "الشيخ مصطفى الدرويش" عن "الشيخ سلمان الطوالي زغرات" وعلاقته بـ"منانة دقاقة الدلوكة" وعن كراماته باستجلاب البهارات من الهند والسند التي تحرِّض الشهية على الأكل، يحكي "علي" مستخرجًا الشخصيات والأحداث الغرائبية من كتاب "الطبقات" و"الشيخ مصطفى الدرويش" يتململ في تأملاته إزاء هذه الشخصيات المنفلتة.

و قرأ "الشيخ مصطفى الدرويش" كتاب " طبقات ود ضيف الله " وأنتقل بقراءاته عن الصوفية الي "محيي الدين بن عربي" وفلسفة "الحلاج"، كنت أحس بأنني لم أفتح "إندايه"، بل فتحت مدرسة لا تتقيد بمناهج وزارة التربية والتعليم، أحس بذلك كلما سمعت "الشيخ مصطفى الدرويش" يردد وهو غارق في عسل نشوته

"أنا رجل

من غمار الموالي

فقير الأرومة والمنبت

لا حسبي ينتمي للسماء

ولا رفعتني لها ثروتي".

"علي" انتقل به إلى النص المسرحي للشاعر المصري "صلاح عبد الصبور" "مأساة الحلاج"، استطاع "علي" أن يجعل من "الشيخ مصطفى الدرويش": شخصا يعرف كيف يدافع عما يفعل، كان يقول عن علاقته بالنشوة والاختمار البحث عن النقاء والشفافية.، "علي" كان يضحك ويعلق على هذه المهمة الصعبة:

- لكن يا شيخنا دا بحث أزلي..

ما زال "الشيخ مصطفى الدرويش" ينظر إلى مكان "علي" ويتهدج بالبكاء، جاء إليَّ محمر العيون وقال لي بعد أن مسح دموعه بعصبية مات أنقى الأنقياء. وخرج وخطواته لا تقوى على الحركة، ترك "عثمان أبو وجعة" البمبر وجلس على الأرض يخطط بإصبعه السبابة على التراب، ترى ماذا تفعلين الآن يا "منى"؟ هل تجلسين وظهرك إلى الجدار وتنصتين إلى صوته؟ "منى" كانت دائمًا تجلس ويفصل بينها وبين "على" الحائط الذي يفصل بين بيتي وبيتهم، كانت تستمع إليه يتحدث ويغني ويقرأ القصائد مستعذبًا بصوته الدافئ ويتلاشى بينهما هذا الحائط وينهزم أمام هذا التواصل الحميم، أنا أجزم أن "منى" كانت ترى "علي" في

كل هـذه التجليـات مسربـة ومتسربـة عـبر مسـامات ذلـك الحائـط كل أمانيهـا وأحلامهـا، كان يحبهـا وتحبـه، كـم هـو قـاسٍ عـلى الفتـاة أن تفقـد حلمهـا، أنـا أعـرف ذلـك تمامًـا، أعـرف هـذا المـذاق، "منـى" لم أسـمع لهـا صوتًـا منـذ حـدوث الفاجعـة، "عـلي" علَّمهـا أن تثـور في وجـه والدهـا، سـمعتها مـرة تـصرخ، والدهـا ضربهـا بعنـف حـين قالـت لـه إن تخزيـن السـلع والبضائـع إلى حـين ارتفـاع الأسـعار أمـر عديـم الإنسـانية، تـرى، مـاذا تفعلـين الآن يـا "منـى"؟ لا صوتـه يأتينـي ولا يأتيـك متخطيًـا هـذا الجـدار، المـوت صـار هـو الجـدار الآن، هـل نقـوى عـلى تحطيمـه؟ الحيـاة نفسـها جـدار كبـير ومصمـت، بـين الحلـم والفعـل جـدران وجـدران، كان "عـلي" يلاقيهـا أحيانًـا هنـا، في مملكـة الأحـلام، يتـم اللقـاء فيحلـمان وأنـا أسـتمع لأحلامهـما وأتذكـر الصبـا.

- منى، ما نكسر الحيطة دي.
- متين لكين؟
- بكرة، بكرة بنكسرها.

لم يـأتِ الغـد ولم يتهـدم الحائـط يـا "منـى"، بـل شـب حائـط جديد هـو المـوت، لمـاذا لم تـأتِ إلى يا "منـى"؟ أخـاف عليك0 من هـذا الحزن، أنـا أعـرف هـذا المـذاق، كان "عـلي" يحدثنـي عـن العشـق والفنـاء.

- يا مريم، الحب قيمة كبيرة.
- الفناء في المحبوب عند الصوفية يا مريم ما حاجة ساهلة.

الفنـاء؟ الفنـاء أخـذه منـا بعيـدًا يـا "منـى"، كان يقـول عـن حبـي

لـ"عبـد الباسـط" إنـه أشـبه بالحـب الصـوفي، آآه، يـا "عبـد الباسـط"، "عبـد الباسـط"، صخـرة يجـب أن أنحـت عليهـا أحلامـي، لمـاذا لم يـأتِ حتـى الآن؟ الليلـة سـوف تتحطـم كل صخـور الصمـت البكـماء، تتحطم لدرجـة الـصراخ، كان يـصرخ دائمًـا في وجهـي حـين أتدلـل عليـه وأتمنـع، قرصنـي مـرة عـلى خـدي حتـى صرخـت، كان لا يحتمـل صمتـي كثـيراً، كـم أنـت مشـاكس حتـى في صمتـك يـا "عبـد الباسـط" وإنـك تقرصني.

"العذاب يا ناس هوى

النار النار النار

علي الفنان

علي العمار والخضار".

جـاء "النعيسـان" معلنًـا حزنـه، محتجًّـا بصوتـه القوي، أمسـك رأسي وراح يبـكي، وقـف "عثـمان أبـو وجعـة" وألصـق رأسـه عـلى الحائـط وبـكى هـذه المـرة بصـوت مسـموع، "النعيسـان" مـا زال يمسـك رأسي ويبـكي، جلـس عـلى الأرض، مسـح دموعـه بطـرف جلبابـه المتسـخ بالغبـار والعـرق، كان يعمـل حـمَّالًا.

- والله عذبني يا مريم، آآآآآخ، الدنيا يا مريم.

"النعيسـان" ذلـك الصـوت الهـادر الصخـاب، كان لا يحتمـل الظلـم فيـصرخ في كل البلـدة معلنـا احتجاجـه عـلى كل ظـالم منتميًّـا إلى كل مظلـوم، يخـرج مـن مملكـة الأحـلام صائحًـا في النـاس:

- لا يـا نـاس، أوعكـم، بحذركـم، أبعـدوا عـن عبـد التـواب، دا

حرامـي، أيـوا، حرامـي، سراق المسـاكين أوعكـم، أوع، تدوهـو أصواتكـم، أنـا كلمتكـم وزي مـا قالـوا في المثـل، كـترة الصفيـق بتعلـم المزاوغـة، أيـوا، كـترة الصفيـق بتعلـم المزاوغـة.

كان ذلـك حـين ترشـح "عبـد التـواب" للمـرة الثانيـة لمجلـس البلدة، لا أنـسى أبـدًا احتجـاج "النعيسـان" السـاخر مـن أزمـة الميـاه التـي اجتاحـت البلـدة:

- حـرام عليكـم يـا نـاس، المويـه؟ المويـه كـمان؟ يعنـي فاتـت ويـن؟ ولا يمكـن المويـه دخلـت السـوق الأسـود، طيـب، وزعـوا علينـا كـروت التمويـن وفيهـا المويـه، يـا نـاس هـوي، هـوي يـا نـاس، المويـه حتكـون بكـروت التمويـن.

كان "النعيسـان" حـين يكـون ممتلئًـا بالشـجن يخـرج عـلى النـاس منشـدًا بصـوت عـذب:

"الشم خوخت بردن ليالي الحره

والبراق برق من منا جاب القره

شوف عيني الصقير بجناحو كفت الفره

تلقاها أم خدود الليلة مرقت بره".

"عـلي" اسـتطاع أن يجعـل مـن صـوت "النعيسـان" ضمـيرًا لـكل النـاس، يحمـل أحلامهـم ومعاناتهـم:

"الليلة يا بلد الغبش

دمعة عيونك نمسحا

فرحة ترابك نزرعا

وبالخضرة نحنا نوشحا".

كانـت البلـدة تنـام عـلى صوتـه، أنـا تعـودت أن أغمـض عيـوني اطمئنانًـا حـين أسـمع صوتـه، كل شـوارع البلـدة وأزقتهـا الحميمـة وفضاءاتهـا الممتـدة بأحلامهـا وهمومهـا، اسـتطاع "عـلي" أن يجعلهـا تصـب هنـا، في مملكـة الأحـلام.

جلـس "عثـمان أبـو وجعـة" عـلى الـتراب، وقـف "النعيسـان" وبعـد صمـت طويـل وهـو يمسـح دموعـه.

- مريم، الجمعة، كلنا نكون هنا.

خرج ولأول مرة يخرج "النعيسان" من مملكة الأحلام صامتًا.

"عبـد القيـوم" ودعنـي ووجـع "أبـو وجعـة" وذهـب، "أبـو وجعـة" يخطـط بإصبعـه السـبابة عـلى الـتراب ويمسـح، لم يـشرب الليلـة.

- أبو وجعة، أديك تشرب؟
- أشرب شنو يا مريم؟
- دي حال الدنيا يا عثمان.
- نعم، حال الدنيا، لكن، علي؟ لا.
- المقدر.
- آخـر مـرة، قـال لي، يـا عثـمان، حـاول تكـون مسـؤول عـن جيـل كامـل، بكـرة؟ يـا مريـم ألقاهـو مـات؟

الدمـوع، الحـزن، اليـأس، وجهـه كان ينطـق بـكل تلـك المعـاني، يكتـب عـلى الـتراب ويمسـح، يكتـب دون ملـل أو كلـل ويمسـح بـكل ملـل وكلـل، نهضـت مـن مـكاني لأعـرف مـاذا يكتـب، وجدتـه يكتـب هـذه الجملـة ويمسـحها "إذا كانـت الحيـاة لا تسـاوي شـيئًا فـإن لا شيء يسـاوي الحيـاة"..

كان "عـلي" يقـول هـذه الجملـة لـكل مـن يحـس باليـأس، الحيـاة تسـاوي ولا تسـاوي، أخـيرًا، جـاء "عبـد الباسـط" بطيئًـا يتحـرك نحـوي، ناولنـي قمـن الزجاجـة ولم ينطـق حرفًـا، أخـذ البمـبر وجلس، اسـتطعت أن أرى دمعـة في عينيـه رغـم تلـك العتمـة، حتـى البـكاء صامتًـا يـا "عبـد الباسـط"؟ سـوف نـصرخ كلنـا هـذه الليلـة، مـا زلـت أراه صبيًّـا وأحـس بأننـي صبيـة تداعـب أحلامهـا، مـلأت الزجاجـة وذهبـت إليـه مسـتعيدة خطـوات الصبـا، وضعـت الزجاجـة ووضعتنـي أمامـه.

- إزيك يا عبد الباسط؟
- أهلًا يا مريم.

مد لي يدًا باردة، اعتصرتها وقرصته.

- ما تتحرك يا عبد الباسط.
- أتحرك على وين؟
- أنت نسيت ولا شنو؟
- نسيت شنو؟
- مش زمان كنت بتقول لي اتحركي؟

- زمان.
- ما فات شيء.
- كيف يعني؟
- لسه، بتذكر أصابعك.
- ....
- أنا لسه بحلم بيك.

نظـر إليَّ مــن بـين دموعــه ودخـل بجرعــة كبـيرة نحــو شــجنه ونشـوته، مـا زال "أبـو وجعـة" يكتـب ويمسح، ذهبـت نحـوه، نظـرت إليَّ مـا يكتــب "هــذا العــالم مبهـم، عــالم لا يفهـم".

- أديك كبابة يا أبو وجعة؟
- أديني قزازة.

قالهـا بصـورة قاطعـة ومسـح مـا كتـب بعنـف أثـار حلقـة صغـيرة مـن الغبـار.

3

كل شيء تـم إعـداده، الصـورة المكـبرة لـ "عـلي" علقتها عـلى الحائط، جريـدة الجمعـة في مكانهـا عـلى الحائـط، اسـتطعنا أنـا و"منـى" أن نجـد عـدة مواضيـع متنوعـة كتبهـا "عـلي" في أعـداد سـابقة لجريـدة "مملكـة الأحـلام" الحائطيـة الأسـبوعية فأخرجنـا عـددًا مـن أعـداد، لم أتخـل أبـدًا عـن الممارسـة لفـن الخـط، أحـس أننـي أمتلـك العـالم والقلـم أو الريشـة تطمـئن أصابعـي، هـا هـي "منـى" تسـقي شـجرة الليمـون التـي زرعهـا "عـلي" وهـو يحلـم بالظـل والثمـر، اقتربـت منها، اسـتعنت أن أحظـى برؤيـة دمعتهـا وهـي تنـزل مـن عينيهـا وتختلـط بالمـاء الـذي يسـقي الشـجر، أي صبـاح هـذا الـذي يخلـط المـاء بالدمع؟ ابتعـدت عنهـا وتركتهـا تتحسـس بأنامـل مرتجفـة أوراق الشـجرة الصغـيرة الخضـراء، طـارت عصافـير "ود أبـرق" مـن عـلى ماسـورة الميـاه وأنـا أتحـرك عـلى الراكوبـة، أسـمع طرقًـا عـلى البـاب، خبطـات متوتـرة، غـيرت اتجاهـي نحـو البـاب لأميِّـز صـوت "حبوبـة بتـول".

- افتحي يا مريم عشان تشوفي مسخرة النسوان ديل.

كانـت قـد وصلـت إلى أقـرب ممـر في الحـوش وهـي تجـر وراءهـا "حمـوني"، جلسـت وهـي ممسـكة بيـده وبحركـة عنيفـة أجلسـته عـلى الأرض و"حمـوني" لا يملـك إلا أن يكثـف بـكاءه.

- اتفن في التراب دا.

جلس "حموني" مستسلمًا، صرخت "حبوبة بتول" في وجهه، اقتربت "منى" منها وحاولت أن تخلص "حموني" من قبضتها، نهرتها "حبوبة بتول"

- ابعدي بعيد يا بت.

"منى" اقتربت منها.

- براحة، فهمينا الحاصل.

بيدها اليسرى لكزت "حبوبة بتول" "حموني" في رأسه قائلة:

- قول ليها، قلت لي شنو.

"حموني" يبكي.

- قول يا ولد، قلت لي شنو؟

"حموني" يبكي.

- فكيني في الأول.
- ما بفكك، ما بفكك، أحسن تقول أنت قلت لي شنو.

تدخلت لكي أخلص "حموني" من قبضتها.

- وحات محمد أحمد ولدي، ما بفكو.

- أها، قولي لي أنت، هو قال ليك شنو؟

- لا، لا، يقول هو، ما تقول يا ولد.

اقتربت من "حموني" لأني أعرف أنه حين تقسم "حبوبة بتول" بولدها "محمد أحمد" فهذا يعني أن الدائرة مغلقة.

- أنت قلت ليها شنو يا حموني؟

- وحات كتاب الله العظيم ما قلت ليها حاجة.

تجذبه "حبوبة بتول" بعنف نحوها وتضع وجهها أمام وجهه الصغير المبلل بالدموع وترمي في عيونه نظرة قاسية.

- ما تقول يا ولد وتوريني الكلام دا جبتو من وين؟

ونتدخل أنا و"منى" كي نقنع "حموني" يوافق ولكن بشرط.

- خلوها تفكني أول.

- والله والله ما تقول ليها قلت لي شنو، ياني الماسكاك وما فاكاك إلا ينهق حمار الخلاء.

- قول يا حموني وهي حتفكك.

نظر "حموني" إليَّ، ثم إلى "منى"، مسح بيده المتربة على وجهه ونظر إلى "حبوبة بتول" ويبدو أنه تأمل أزمة حمار الخلاء وعرف أنه لا فكاك:

- أنا قلت ليها... يا... يا التلفون.

وانفجـرت مـن "منـى" ضحكـة صاخبـة وأنـا لم أكـن أملـك إلا أن أكتـم ضحكتـي وأظهـر حيـادي المزيـف تجـاه هـذه الطرفـة وتـصرخ "حبوبـة بتـول" ضـد ضحكـة "منـى"

- انكتمـي يـا بـت، كتم نفسـك، شـايفة يـا مريـم الـود المفعوص دا بقـول لي يـا التلفـون، يتفـوك إن شـا اللـه بالفنـدك، أنـا تلفـون؟ يـا تليفـه يـا عيفـه، أنـا يـا مريـم يسـموني التلفـون؟

- كلموها، كلموها تفكني.

- و الله إلا تقول لي سمعت التلفون دي من منو.

- هو قال ليك في الشارع يعني؟

- مريـم، الـود جـاني مرسـلنو لي طماطـم، مـد لي القـروش وقـال لي يـا حبوبـة التلفـون أدينـي طماطـم، أهـا بـس مسـكتو مـن إيـدو وجبتـو لي هنـا عشـان النسـوان ديـل مـا ينكـرن، قـول يـا ود، ويـن؟

- ما سمعتهم بقولو ليك كده.

- ديل منو؟

- خالتي سعدية وأمي.

انتفضــت "حبوبــة بتــول" واقفــة بعــد أن نفضــت عنهــا يــد "حمــوني".

- ناس البيت، إزيكم؟

"حمـد الجـزار" وجـد البـاب مفتوحًـا ودلـف إلى الداخـل يقـود

معه خروفًا، الخروف وهبه لهذا اليوم، يقود الخروف من قرنيه، لم تمهلنا "حبوبة بتول" لحظة للرد على تحيته ورفعت كلتا يديها إلى السماء مشهرة السبابتين من بين أصابع كفيها.

- الليلة يا سعديه والرتينة إن ما وريتكم النجوم عز الضهر ما أبقى أنا بتول، أنا التلفون يا بنات صالح، إن شا الله وبركة الله ومن قال رسول الله يتفكن بي كراكة أم جنازير، عليكم النبي يا مريم شوفي مغصة النسوان ديل.

هرب "حموني" بساقين من خوف، "حمد الجزار" يجر الخروف من قرنيه وهو يتابع ثورة "حبوبة بتول" بحياد مجرب.

- أها يا مريم، اشهدي على النسوان ديل ومن دربي دا أنتِ معاي، الحجل بالرجل، نمشي عليهن، عاد ما براكي سمعتي الولد قال شنو.

- كدي أهدي يا بتول وتعالي معاي.

قدتها من يدها ودلفت بها إلى داخل الراكوبة.

- مريم، أنا حادبح طوالي.

مددت رأسي وأنا أجلس "حبوبة بتول".

- ادبح طوالي.

ناولت "حبوبة بتول" كوب ماء من الزير وجلست قربها، رفعت الكوب إلى فمها وسرعان ما تخلت عن الشرب.

- والله يا مريم، ما بخليهن.

- كدي اشربي المويه.

نظرت إليَّ وشربت كوب الماء دفعة واحدة.

- نشفن ريقي، الله ينشف ضراعاتن.

"منى" تتابع عملية الذبح مع "حمد الجزار" وأنا أحاول أن أجد مدخلًا يعيد "حبوبة بتول" إلى بعض التوازن، قررت أن أنقلها إلى موضوع آخر.

- امبارح جيتك في البيت، قالوا مرقتِ.

- آآي، مشيت على ناس حجازي.

- إن شا الله خير.

- بت حجازي الوسطانية، اسمها...، يا الله تديني اسمها... آي، إلهام.

- مالا؟

- قالوا غمرت ووقعت في المنقد وحرقت إيديها.

- يا ساتر.

وهمست في أذني:

- هي ما طلعت حامل وتحت تحت قالوا كانت دايرة تحرق نفسها.

تظاهـرت بعـد هـذا الخـبر الـذي أعـاد "حبوبـة بتـول" إلى حيويـة نقـل الأخبـار، تلـك الحيويـة التـي منحتهـا ذلـك اللقـب سـبب مشـكلة هـذا الصبـاح – التلفـون - تظاهـرت بالإصغـاء لهـا وانحـزت إلى ثرثـرتي الداخليـة وأنـا أتابـع مـن بعيـد "منـى" و"حمـد الجـزار" يهتـمان بالخـروف المعلـق عـلي الشـعبة، "حمد" يقطـع أجزاء الخـروف و"منى" تضـع اللحـم عـلى طشـت الألمنيـوم الكبـير، و"حبوبـة بتـول" غارقـة في لـذة تذوقهـا لأخبـار البـشر، تثرثـر وتثرثـر متنقلة بـين أخبارهـا الطازجة.

- آآهـا، ود البخيـت مـا طلـع معـرس فـوق مرتـو، هـي لكـين زاتـا بتسـتاهل، المـرة الخملـة مـا أصلـو بعرسـو فوقـا.

مـا الـذي سـيخرجني مـن دائـرة "حبوبـة بتـول" المغلقـة؟ قـررت بعـد ذلـك أن أحرضهـا عـلى مسـاعدتنا، "حبوبـة بتـول" تنحـاز دائمًـا إلى همتهـا.

- أها يا بتول، نقوم على الدبيحة دي.

- بالحيل، أنا أمشي أدخل طبليتي وأجيكِ بسراع.

وقفـت بهمـة وتحركـت نحـو البـاب وأنـا وراءهـا وحـين خرجـت هممـت بقفـل البـاب، ولكنهـا عـادت ودفعـت البـاب بمسـافة تتيـح لهـا فقـط الظهـور ونظـرت إليَّ بتلـذذ غريـب وقالـت هامسـة:

- هـي يـا مريـم، مـا قلـت ليـك، آدم ود نـاس الدقيـل، المـات قبـل شـهرين، مـا طلـع فيهـو تـيراب البنيـة، وحاتـك، قالـوا قـام بعـاتي وحايـم في الحلـة، كـدي لامـن أجيـك.

وأغلقـت البـاب لأحمـل أنـا ضحكتـي معـي إلى حيـث "منـى" و"حمـد" وأنـا أعـرف أن "حبوبـة بتـول" سـتلملم بضاعتها مـن عـلى الطبليـة التـي هـي أمـام منزلهـا وتتلهـف عودتهـا إلينـا وسـتتناثر الأخبـار الغريبـة بـين تفاصيـل حيويتهـا وهمتهـا في العمـل.

كلهـم قـد حـضروا، لم يتغيـب أحـد، حتـى "عبـد الباسـط" جـاء حامـلًا صمتـه العنيـد، عـادت "حبوبـة بتـول" بثرثرتهـا وأخبارهـا، "الشـيخ مصطفـى الدرويـش" جـاء يحمـل معـه كتـاب "الطبقـات" الـذي أهـداه لـه "عـلي"، اليـوم الجمعـة، موعـد النشـاط الأسـبوعي، "النعيسـان" جـاء بجلبابـه الأزرق الـذي يلبسـه كل جمعـة ويدخـره للمناسـبات، "عمـر" جـاء صامتًـا حزينًـا ولكـن سرعـان مـا انشـغل بتفاصيـل الإعـداد، أطفـال الحـي تجمعـوا كـما اعتـادوا، "سـكينة" أشـهرت انفلاتهـا وجـاءت، الأطفـال، أحـس بنظراتهـم تسـألني عـن "عـلي"، "عبـد القيـوم" يطالـع الجريـدة و"حبوبـة بتـول" اصطـادت بحرفيـة عاليـة آذان "حمـد الجـزار" وهـي تنظـف كرشـة الخـروف، "جـاد المـولى" يتفحـص "منـى" بنظـرة حيوانيـة، لا أدري لمـاذا يـصر عـلى المجـيء هنـا، كـم أكرهـه، "عثـمان أبـو وجعـة" شـارد النظـرات وكأنـه يبحـث عـن شيء ضائـع في أفـق هلامـي، "منـى" استسـلمت للحـزن الـذي يلفهـا ويحاصرهـا فجلسـت في مـكان "عـلي" المعتـاد، تبحـث عـن وجـوده مـن خـلال نـداءات مـاض قريـب.

جاءتنـي "منـى" بعـد يومـين مـن الفاجعـة، جـاءت يابسـة، مذهولـة، بكـت في حضنـي بعنـف.

- قال لي بجي بكره.

لم أستطع أن أقول شيئًا، أجلستها بقربي وهي ترتعش من شدة البكاء وصمتنا طويلًا حتى ذهبت.

امتلأ الحوش بحضور متنوع ومختلف، شخصيات من العاملين والعاملات في السوق، أصدقاء وزملاء "علي"، بعضهم يحضر إلى مملكة الأحلام لأول مرة، الأطفال أخذوا أماكنهم التي عودهم "علي" عليها وباهتمام خاص، تنوعت في الوجوه النظرات الحزينة، كلنا محتارون في البداية، الصمت خيم على الجميع ولكن، "حبوبة بتول" وحدها التي تملك أن تشرخ هذا الصمت بهمساتها في أذن "حمد الجزار" الذي لا يملك إلا أن يعلن عن ضحكة في خضم هذا الحزن، لقد أمسكت "حبوبة بتول" بتلابيب "حمد الجزار" هناك في الراكوبة، "النعيسان" يدق بعصاه علي الأرض، تتساقط حبات المسبحة بسرعة مذهلة من بين أصابع "الشيخ مصطفى الدرويش"، "عثمان أبو وجعة" يحرك قدميه بتوتر ملاحظ حتى تلامس الركبة مع الركبة، "عبد القيوم" أخرج منديله ومسح دموعه، هذا الوغد "جاد المولى" ما زال ينظر إلى "منى"، "عمر" يحرك رأسه مرارًا وتكرارًا، "عبد الباسط" اعتاد هذا الصمت المرعب، "سكينة" هناك في المطبخ تشرف علي الأكل ومعها "كلتوم" بائعة الشاي في السوق، "عبد الباسط"، في سكونه التقت نظراتنا، ما زالت في عينيه أحلام الصبا رغم ذلك الشيب الذي تناثر على شعره، "منى" انتفضت، انتفضت واقفة وبصوت حطم كل ذلك الصمت وأعلنت بداية الخروج من قمقم أحزانها.

"يقول الناس

في غرف الحقيقة

تولد الأشياء

لكني...

رأيت الليل في شباكها

ثملًا

وكان الفجر

تحت الشرفة المغناج

مقتولًا

ترى من يندب الأضواء

يا امرأة على جسدي

تمد الظل أقمار...".

لم تستطع "منى" إكمال القصيدة، ضاعت بقية القصيدة بين دموعها، لكنها قالت بصوت كله بكاء الشاعر العراقي شفيق الكمالي.

هذه القصيدة حفظتها "منى" وهي تجلس وراء ذلك الجدار الذي كان يفصل بينها وبين "علي" الذي كان يردد هذه القصيدة كثيرًا، وكعادته لا ينسى أن يذكر اسم الشاعر بعد قراءة القصيدة.

ساد الصمت مرة أخرى، الأطفال جامدون ووجوههم حزينة، خرج "النعيسان" عن هذا الصمت المربك وأنشد بصوت اختلط فيه الحزن بالتماسك وصعدت أنا معه إلى حيث يسمو بي:

"برق القبلي شاورني

وعيون السمحة نعسانا

كلامنا الفي عيون باكر

يكاتل فيها أحزانا

صحيح

الماتوا ما عادوا

وبرضو القدرة جوانا".

صوت "النعيسان" لم يدع مكانًا لذلك الصمت المربك المرعب، "الشيخ مصطفى الدرويش" بدأ ينشد بصوت مبحوح فاقدًا القدرة على التوازن، إلا أنه كان صوتًا جميلًا

"نسمات هواك لها أرج

تحيا وتعيش بها المهج".

كان يحاول التماسك، لكنه اتجه نحو البكاء حين وصل إلى هذا المقطع:

"فقراء قد دخلوا الدنيا

وكمال دخلوا منها خرجوا".

لم يستطع، تهدج صوته بالبكاء، بكت معه طفلة كان "علي" يلعب معها كثيرًا، "منى" بكت، شعت مني الدموع، كأننا نحاول أن نخلط الحياة بالموت، ساد الصمت مرة أخرى، مملكة الأحلام تحاول استدعاء الفرح بالرغم من كل هذا البكاء الذي احتل الدواخل، آآآه، هذا الصمت عذاب يا "عبد الباسط"، ما زالت

هنـاك فرصـة للانعتـاق، مـا زال هنـاك المتسـع لأحـلام الصبـا، تـرى فيـما تفكـر الآن؟ أنـا أحـاول أن أجـد لهـذا الحـب الصـوفي مكانًـا كـما يقـول "عـلي" وأحـاول أن أجـد لـه واقعًـا، "عـلي" صـار حـاضرًا وغائبًـا وأنـت لا تخـرج عـن دائـرة هـذا الصمـت المحكـم، بـين الحلـم والفعـل جدران وجـدران، كلنـا صامتـون الآن، أحـس أن "عـلي" يسـمعنا جميعًـا ونحـن في متاهـة هـذا الصمـت، حبـات السـبحة تتسـاقط بـين أصابـع "الشـيخ مصطفــى الدرويــش"، ضربــات عصــا "النعيســان"، "عبــد القيــوم" يقـاوم هـذا الصمـت بتقطيبـة تظهـر في العيـون، "عثـمان أبـو وجعـة" بــدأ يمسـح عــلي الأرض، "عمــر" دفــن وجهــه بــين كفيــه، نظـرات "جـاد المـولى" تبـدو فارغـة مـن أي معنـى، "منـى" أصبعهـا الصغـير بـين شـفتيها ونظـرة حزينـة تحتـل عينيهـا، نهضـت أنـا، تابعتنـي كل العيـون، اتجهـت نحـو "عبـد الباسـط"، جلسـت بقربـه، تململ، نظـر إليَّ وهـرب بعينيـه سريعًـا، لا بـدَّ مـن تحطيـم صمتـه، ذلـك الجـدار الـذي توشـك أن تتحطـم عليـه أحـلام الصبـا.

- إزيك يا عبد الباسط؟
- أهلا، مريم.

لم يمد يده هذه المرة، صممت أن أبدأ من حيث وقفت سابقًا

- لسه بحلم بيك.
- أنا ما نسيت يا مريم.
- وبعدين!
- والله ما عارف يا مريم.

- ليه ما عارف؟
- ....
- أنا عارفة.
- طيب،..... كيف؟
- يعني،....... ممكن نتزوج.

نظر إليَّ بعمق، كأنه يبحث عن صدقي فيما قلت.

- "عبد الباسط"،.... ممكن.... أنا مستعدة.
- والله يا مريم؟

الفرح يغمرني، أخيراً سأقترب من تحقيق حلمي، حلم الصبا، وزعت الشراب، فرحي انتقل لكل الحضور، بدأت العقول تختمر وتخرج من أسر ذلك الحزن الصموت، اختلط الدمع بالفرح، "علي" أحس به في كل خطواتي، "النعيسان" أنشد حتى ذاب الجميع، قرأ "عبد القيوم" مقالًا من جريدة مملكة الأحلام، كان المقال يتحدث عن قسوة الرحمة، "الشيخ مصطفى الدرويش" غارق في نشوته

" أذكر إلهك يوت

يوريك طبك

أحسن في من عاداك

ومن يحبك".

وغنيت أنا وأصابعي تستنطق "الدلوكة"، عادة ما ألجأ إلى

"الدلوكة" بدلًا عن "البنقز" حين أحاول أن أحرض شجني بأصداء الأغنيات القديمة، تلك التي يحبها "علي"، غنى معي الجميع، كانت "منى" تغني والحزن في صوتها، رقصت "منى" بهستيريا كأنها تحاول أن تنفض عنها الأحزان، رقص الجميع، فرحتي تمتد لتغسل أحزان الجميع، لم يبق من الحزن إلا وجودًا يبحث عن "علي" داخل كل منَّا، انعتقنا فارتفع غنائي عاليًا

"مع ساعة الغروب

جيت أسأل عليكم

حليلكم يا أحبه

حليل أمالنا فيكم

رحتو بعيد نسيتو

الريد والحنان

العشرة الجميلة

والسعد اللي كان

لكين يا حبيبي

فرقتنا أقدار الزمان".

"منى" كانت ترقص بانطلاق، تترك نفسها للإيقاع يقودها نحو الانعتاق

- وا سجمي، وا رمادي، دا شنو ده؟ دا شنو يا بت يا منى.

توقف كل شيء، عاد الصمت مجبرًا هذه المرة، "علوية"، والدة "منى" تصرخ وبهستيريا:

- دا شنو يا بت يا مطلوقة، بقيتِ ترقصي مع السكارى كمان؟ امرقي قدامي امرقي مرقت روحك، يلا، انجري، جراك بلاء يا مطلوقة يا صعلوكة، وأنتِ يا مريم، خلاص، بقيتِ على البت، دايرة تعلميها يا حضرة الناظرة ولا شنو؟ لا، والله كويس، اصبري عاد إن ما رحلتك من الحلة دي ما أبقى أنا بت أبوي، لمن تجي يا حاج عثمان وتشوف فعائل المرة المطلوقة دي.

خرجت بعد أن هزت ذراعها في وجهي ورنين أساور الذهب يهددني، خرجت، ولم يتحدث معها أحد، لا أستطيع أن أقول شيئًا، كان الحزن والفرح والانطلاق بريئًا، هي لا تفهم، هذا أيضًا جدار كبير، يا لعذابك يا "منى"، فجأة "النعيسان" اخترق حائط الصمت منشدًا، لكنه توقف عن الإنشاد حين سمع صراخ "منى" وهي تضرب من أمها، لا أحد يستطيع أن يفعل شيئًا، "منى" حاولت أن توافق رغبتها في الانعتاق والعشق، لكن قضبان سميكة يقف وراءها حراس وحراس.

- يا منى ما في داعي للهروب.
- لكن يا علي نسوي شنو؟
- نتحايل على الأحلام بالفعل.

كان الفعل بينهما قيمًا تحفر لنفسها مكانًا ثابتًا في قلوب كل الذين يعرفون ما بينهما، تعلمت "منى" منه أن تقول كلمتها

حتى لو قطعت إلى أجزاء وتعلم هو أن يضيف إلى مملكة الأحلام قيمًا تقاوم التراخي والانهيار.

- هذا العالم لا يفهم، نتن، قذر، مركوب، شبط، كتلة من العفن.

"عثمان أبو وجعة" دخل في الحد الفاصل بين الصمت والصراخ، "عمر" وجهه بين كفيه، "حبوبة بتول" تسللت إلى الخارج وهي متباهية بخبر جديد، " الشيخ مصطفى الدرويش" يقاوم رغبة عنيفة في النوم وحبات المسبحة تتساقط في بطء بين أصابعه، الصورة المعلقة لـ "علي"، شجرة الليمون تواجه هذا العالم المشحون بالشجن والفرح والحزن، جلس "عبد الباسط" سيد الصمت العظيم يتجرع كأسًا طويلًا وينظر إلى، "جاد المولى" هرب عندما كانت "علوية" تكيل على الشتائم، "عبد القيوم" ينتظر المساء كي يذهب، الأطفال تفرقوا، كل منَّا في دواخله يداعب أحزانه، "علي" ينظر إلينا من خلال الصورة، ترى ما هي أحلامه؟ كم أشتاق إلى رؤية ابنتي "بثينة" ولكن ما من سبيل، "عادل" ابني غاب طويلًا، كان يراسل "علي" ويراسلني من خلاله، ترى كيف استقبل "عادل" رحيل "علي" المفاجئ، كم أتمنى أن أراك يا "عادل"، شعرت بـ "عبد الباسط" يتحرك نحوي، كم أكون سعيدة لو حاول استعمال أصابعه، جلس بقربي، يبدو أن عقدة لسانه قد حلت.

- مريم، يعني خلاص؟

- خلاص شنو يا عبد الباسط؟

- نتزوج يا مريم؟

- أنا موافقة.

- بس... لاكين... يا مريم.

- لكن شنو يا عبد الباسط؟

- لاكين........ القروش.

- بسيطة.

- نتزوج بالبسيط.

ضغط على يدي بأصابع لها خبرة التعامل مع الخشب والمسمار، كان دائمًا يعلق قلم الرصاص في أذنه، اعتراني خجل طفولي، خطفت قلم الرصاص من أذنه بفرح عارم.

- تصبحي على خير يا مريم.

- وأنت من أهلو.

ذهب وقد تحطم جدار الصمت وخطونا نحو أحلام الصبا، نحو القدرة على العطاء والفعل.

خرج "النعيسان" بعد أن ودعني، خرج يغازل شوارع البلدة بصوت يغرز في الناس الثبات:

"برق القبلي شاورني

وعيون السمحة نعسانا

كلامنا الفي عيون باكر

يكاتل فيها أحزانا

صحيح الماتوا ما عادوا

وبرضو القدرة جوانا".

"عمـر" يخفـي وجهـه بـين كفيـه، "عبـد القيـوم" ذهـب مـع العتمـة، "عثـمان أبـو وجعـة" يعلـن احتجاجـه بالكتابـة عـلى الـتراب، "الشـيخ مصطفـى الدرويـش" نـام تمامًـا وتدلـت مسـبحته مـن يـده داخـل كأسـه، "عـلي" ينظـر إلى كل هـذا مـن خـلال صورتـه المعلقـة ووجـوده في الدواخـل، أنـا أحلـم بالغـد وشـجرة الليمـون تواصـل النمـو وأنامـلي تتشـبث بذلـك القلـم الرصـاص.

4

" دوم

تك

دوم

تك

تك

دوم

تك

تك

دوم".

أنقـر بأصابعـي عـلى "البنقـز"، أتحسـس أصابعـي على "الـدوم" و" التـك"، خربشـة بالأصابـع عـلى "البامبـو"، أتـذوق الصـوت الغليـظ في "الـدوم"، أرقـص أصابـع يـدي اليمنـى عـلى "المامبـو"، نقـرات منفـردة، نقـرات بـين الهـدوء والصخـب، خليـط مـن الأصـوات الدافئـة، حالـة إيقاعيـة خاصـة، خاصـة جـدًّا، لا تنتمـي إلا لتناثـري في التفاصيـل، إلى شـفراتي العاطفيـة، إلى امتصـاصي لانفعـالاتي الجامحـة، أدوزن أنوثتـي في

أنسجة الإيقاع، تجادل أصابعي التراكيب الإيقاعية وتتحول متنقلة من إيقاع إلى آخر، أمزج بين أنواع الإيقاعات، أمزج بين "التمتم" و"نوبة القادرية"، أنتمي إلى انسياب أصابعي وهي تنتقل بين إيقاع وآخر، أحس وأنا في حالتي الإيقاعية هذه أنني أنسجم مع نفسي، أجادلها، أزيل عنها تلك التراكمات السالبة، أحس بأني أصفو، أتجلى وأشهر عاطفة نقية تجاه هذه الأصوات التي تتسرب من بين أصابعي متسربة في أثير، أحس بأني أحاصر الزمن داخل هذه التراكيب الإيقاعية، ألجأ إلى هذا الطقس عادة وأنا في ذروة عواطفي، لا يهم بأن تكون هذه الذروة حزنًا أم فرحًا، تحرضني هذه الذروة على هذا التجلي الإبداعي، تحيلني إلى تأملاتي وتتداعى في هذه اللحظة، لحظة ملامسة أصابعي "البنقز" حياتي تلك التي عبرت، أحاول أجد لها واقعًا، يمتصني الإيقاع، يحيلني إلى حيث تشف روحي وتتسرب محلقة مع النقرات، نقرات هادئة، نقرات صاخبة، نقرات بين الهدوء والصخب، تتوافق النقرات عادة مع تأملاتي وصور مجسدة في ذاكرتي، كأني أفكر بالإيقاع، كأني أفكر بنقرات أصابعي على "البنقز"، أتوازن مع عواطفي ودائمًا ما تكون هذه الحالة، الحالة الإيقاعية بمنزلة طقس سري أمارسه وحدي.

لا يستطيع أحد أن يقترب من حالتي هذي التي ألجأ إليها عبر تفاصيل حميمة، أهيئ المكان، أرش أرضية الغرفة بالماء إذا كان الجو حارًا، لا أتقيد بزمن محدد وأنا أدخل في سراديب هذه الحالة، أحرص على قفل النوافذ وإحكام إغلاق باب غرفتي، لا يقيدني الزمن، قد أدخل هذا السرداب الإيقاعي صباحًا، مساء أو

ليـلا ولكنـي عـادة مـا أتفـادى الظهـيرة، نـادرًا جـدًّا أن أدخـل سردابي الإيقاعـي في الظهـيرة ولكـن يبـدو أن الظهـيرة في هـذا اليـوم تحالفـت مـع رغبتـي في الولـوج إلى حالتـي الإيقاعيـة التـي تجوهـر إحسـاسي بهـذا الكـون، دائمًـا مـا أدخـل وحـدي، لا أحـب أن يكـون معـي أحـد، لا أحتمـل أن يـراني أحـد وأنـا أذوب في الإيقاعـات، أذوب وأشـهر مـن خلالهـا أنوثتـي، أجربهـا، أتـذوق رقتـي مـع الإيقـاع، أتـذوق خشـونتي حتـى أمـارس التمايـل الراقـص، دواخـلي، كل أطـرافي ترقـص، وجهـي تتنـوع انفعالاتـه بـين الإيقاعـات.

هـذه الظهـيرة، كنـت وحـدي، ينـثر قلقي خطـواتي في نـواصي البيت، أدخـل غرفتـي وأخـرج، أخـرج مـن المطبـخ متجهـة إلى "الراكوبـة"، كنـت أحـس بي فارغـة العاطفـة، خاويـة، لا أنتمـي إلى أي معنـى، منفلتـة مـن كل المعـاني، متبلـدة الإحسـاس، تهيـم خطـواتي في الحـوش، أسـقي شـجرة الليمـون، أنظـف أحـواض الزهـور المرصوصـة بفـوضى أحبهـا دائمًـا، لا أحـس بالخطـوط المسـتقيمة ولا أنتمـي إلى ذلـك النظـام المسـجون في الثوابـت، قـررت الخـروج مـن هـذا الخـواء، قـررت أن أجـد لي معنـى في هـذه الظهـيرة ذات السـأم الغريـب، قـررت أن أهـرب مـن مـلي، أعـرف أني ملولـة إلى درجـة الكثافـة، تفاصيـل اليـوم العاديـة مسـجونة عنـدي في التكـرار، أنفلـت دائمًـا مـن كل مـا هـو بديهـي، في هـذه الظهـيرة، قـررت أن أسـتنطق عاطفتـي، أن أهيـئ هـذه العاطفـة المتمـردة لــ "عبـد الباسـط"، وبقليـل مـن التحريـض، تحريض الذاكـرة، خرجـت منسـابة مـن بـلادة الإحسـاس إلى منطقـة الـذروة في عاطفتـي، شـحذت تأمـلاتي، ركضـت بلهفـة إلى غرفتـي، أخرجـت "البنقـز" مـن الحقيبـة الجلديـة، وضعتـه بـين رجـلي، انتبهـت، وضعـت

"البنقـز" عـلى السريـر، أغلقـت النوافـذ، أغلقـت بـاب الغرفـة وفتحـت كل مسـاماتي، فتحـت كل نوافـذ الداخـل المغلقـة، كل أبـواب ذاكـرتي وتجولـت بحريـة في شـوارع وأزقـة تأمـلاتي وبـدأت أنقـر بأصابعـي عـلى "البنقـز"، أتحسـس عاطفتـي، أسـتنطقها، أشـف، تتفتـح أنوثتـي متهيئـة لحلـم الصبـا، أنقـر، أنقـر، والإيقـاع يدخـل حميميًّـا بين أنسـجة أحلامـي وتأمـلاتي، وأحـزاني تلـك المزمنـة وأفراحـي الشـحيحة، أعـزف وشـوارع وأزقـة طفولتـي تأتينـي بتفاصيلهـا الحميمـة، أعـزف ووجـه أمـي باكيًـا يودعنـي وهـي تقـاد بعنـف مـن قبـل رجـال البوليـس وأنـا تلـك الطفلـة التـي لا يمكـن لهـا أن تعـرف لمـاذا تؤخـذ أمهـا هكـذا عنـوة، أصرخ في رجـال البوليـس باكيـة ويمتصنـي الإيقـاع الـذي يتفجـر مـن بـين أصابعـي الآن، يمتـص هـذا البـكاء، يـصرخ الإيقـاع منتميًـا إلي صرختـي التـي قفـزت مـن بـين أصـداء ذاكـرتي، أعـزف، وأعـزف، ألجـأ إلى إيقـاع حنـين، أراني فيـه صبيـة تركـض خلـف أحلامهـا تلـك التـي كانـت عاديـة، أركـض، ويركـض الإيقـاع معـي، أركـض وأنـا صبيـة في شـارع يطـرب لمسـاء حميـم،، أزقـة صغـيرة بـين بيـوت الحـي ولهـا تلـك العتمـة، أصابعـي عـلى "البنقـز" تحـاول أن تجـد إيقـاع تلـك العتمـة، كانـت خطـوات "عبـد الباسـط" تركـض خلفـي، أنقـر بأصابعـي عـلى "البنقـز" مسـتدعية إيقـاع تلـك الخطـوات الحميمـة، تقـترب الخطوات أكـثر، أصابـع "عبـد الباسـط" تعتـصر مكمـن الأنوثـة في صـدري، وأصابعـي تهيـج مـع تلـك النشـوة مجسـدة هـذا الهيـاج النقـي لأنوثتي البكـر عـلى دوائـر "البنقـز" الثلاثـة، تراكيـب إيقاعيـة تسـتدعي كل اشـتهاءاتي للحيـاة، شـوارع البلـدة، أحياءهـا، ناسـها، أطفالهـا، خريفهـا المـترع النـدي وصيفهـا الحـار، لياليهـا المقمـرة وشـتاءاتها المحرضـة عـلى الشـجن، جـولاتي في سـوقها وأنظـار الرجـال تحتشـد لمتابعتـي، باحـات

المدرسـة الأوليـة، زميـلات حميـمات في كليـة المعلـمات، عيـون التلاميـذ والتلميـذات، تلـك العيـون الحبيبـة التـي تعاملـت معهـا وأنـا مدرسـة، قـرى وأريـاف بعيـدة ونائيـة مارسـت فيهـا التدريـس، تلـك المـدارس الفقـيرة، مـدارس مـن القـش وأخـرى في العـراء ومـدارس عـلي الـبروش وأحيانـا الجلـوس عـلي الأرض.

أعـزف، وتحـاول نقـرات أصابعـي أن تجسـد كل هـذه الصـور، لا أكتفـي بصـور الذاكـرة ويقفـز بي الإيقـاع النابـع مـن دواخـلي إلى حيـاة قادمـة فتسـتجيب أصابعـي لهـذا الإحسـاس، وتتنـوع التراكيـب الإيقاعيـة، هأنـذا أنقـر نقـرات بهـا ذلـك المـس الغريـب مـن الشـهوة، أراني في عذوبـة اللـذة، أرى "عبـد الباسـط" حلمـي المقترب وقـد صهرتنا اللحظـة، تلـك اللحظـة التـي أحالـت نقـرات أصابعـي عـلي "البنقـز" إلى إيقـاع حميـم، صاخـب أحيانًـا وأحيانًـا هـادي، يعلـو بي الإيقـاع، رعشـات أصابعـي عـلى الجلـد المشـدود عـلي دوائـر "البنقـز" الثلاثـة تسـمو بي، تدخلنـي في عوالمـي المرتقبـة فأعـزف وأعـزف وأعـزف، أرحـل مـن إيقـاع لأسـكن في إيقـاع آخـر، أتجـول بـين رحيـلي وسـكنتي في الإيقـاع وبـين صخـب انفعـالاتي وأحـاول أن أسـابق الزمـن العـادي كي أسـتوطن زمنـي الداخـلي، الداخـلي جـدًّا، ذلـك الـذي أثـق بأنـه أجمـل فأعـزف أجمـل، أتمايـل مـع نشـوتي وترقـص منـي الدواخـل وتحتشـد تفاصيـل الإيقـاع في مهرجـان شـهوتي، أنوثتـي تهتـاج، أختبرهـا بالإيقـاع، أحـس بـأني نقيـة الأنوثـة، أطمـئن إلى تجليات الأنثـى في حركتـي الراقصة مـع ارتعاشـات أصابعـي وهـي تفجـر إيقاعـات أحلامـي، داخـل هـذا الطقـس النهـاري كنـت أتحسـس أنوثتـي كي أقدمهـا لذلـك الرجـل الـذي خطـف منـي رعشـتي الأنثويـة الأولى، تلـك الرعشـة البكـر.

هأنـذا أهـرب مـن تلـك الظهـيرة اللزجـة بالدخـول إلى سراديـب حالتـي الإيقاعيـة منتميـة إلى شـفرات أنوثتـي السريـة وحيـث انتمـت أصابعـي إلى إيقـاع حنـين وعـذب، تراكيـب داخـل إيقـاع "التمتـم"، حرضتنـي تلـك العذوبـة وذلـك الحنـين إلي اسـتبدال "البنقـز" بـ"الدلوكـة" كي أنحـاز إلى رغبتـي في غنـاء دافـئ وبعاطفـة مشـبوبة أوقفـت العـزف عـلى "البنقـز"، وضعتـه عـلى السريـر وحـين تحركـت نحـو "الدلوكـة" الموضوعـة فـوق الـدولاب فاجأتنـي ضربـات عنيفـة عـلى البـاب، أحـس بهـا بالرغـم مـن إغلاقـي المحكـم لبـاب غرفتـي، هـا قـد ذبحـت رغبتـي في غنـاء عـذب، مضطـرة إلى أن أخـرج مـن نشـوتي تلـك إلى عـالم خارجـي مزعـج، فتحـت بـاب غرفتـي، دوت تلـك الضربـات العنيفـة عـلي البـاب الخارجـي وشرخـت في أذني كل ذلـك التراكـم الإيقاعـي الجميـل، حـين وصلـت إلى البـاب، سـمعت صـوت "الحـاج عثـمان"، والـد "منـى" وهـو يـصرخ:

- افتحي الباب قبل ما أكسرو.

و يخبـط بعصـا يحملهـا عـلى البـاب الـذي هـو مـن الزنـك، كـم هـي ضربـات ناشـزة التـي أخرجتنـي مـن عذوبـة الإيقاعـات، فتحـت البـاب ومـلأت بجسـدي كل فراغـه وواجهـت "الحـاج عثـمان" بصرخـة في وجهـه تزحـزح عـلى إثرهـا مـن قـرب البـاب.

- بتكورك مالك؟ في شنو؟

ولـوح "الحـاج عثـمان" بعصـاه أمـام وجهـي، كان منتفخًـا وبصـوت جشـع قـال لي:

- شوفي يا مريم، مسخرة النسوان دي ما بتنفع معاي.

أمسكت العصا وجذبتها بعنف من يده وقذفت بها بعيدًا

- شوف أنتَ، أنا ذاتي المسخرة ما بتنفع معاي.

وتحركت نحوه خطوات، تراجع إلى الخلف، كان جبانًا كعادة كل تاجر جشع.

- أنتِ قايلة نفسك شنو يعني؟ فاتحة إنداية وسط الحلة، سكتنا، كمان قبلتِ على بناتنا، شوفي يا مريم، أحسن تبعدي عن منى، بتي أنا ترقص مع السكارى؟

- شوف يا حاج عثمان، بتك أنا ما بطردا من بيتي، شوف البريحك.

- بيت؟ ياتو بيت؟ أنتِ ما عندك بيت، أنتِ عندك إنداية يا خادم يا مطلوقة.

وتحركت بانفعال واضح في اتجاهه، قررت أن أصفعه، ولكنني تراجعت منحازة إلى "منى" وتراجع هو هاربًا من تقدمي نحوه، تركته ورجعت وقفلت بابي بعنف، في حين هو يصرخ:

- أنا لو ما رحلتك من الحلة دي ما أبقى أنا عثمان، يا مرة يا خادم يا مطلوقة.

مرتجفة أطرافي من الانفعال، شربت من ماء الزير، جلست شبه منهارة على "عنقريب" داخل "الراكوبة"، بدأ المساء يعلن

قدومـه، تمـددت عـلى "العنقريـب" محاولـة الاسـترخاء، أحـس بتلـك الهـوة السـحيقة بـين مـا كنـت فيـه قبـل قليـل وبـين حالتـي الإيقاعيـة تلـك، تنهـدت بعمـق، أغمضـت عيـوني محاولـة إزاحـة مشـاجرة "حـاج عثـمان" معـي، تـرى مـاذا أفعـل؟ لا بـأس، أعـرف أن "منـى" نـوع مميـز مـن النسـاء، فتـاة لهـا القـدرة عـلى التحـرر مـن كل القيـود، تصـارع طويـلًا مـن أجـل رغبتهـا، تحطـم كل شيء في سـبيل أن تصنـع لإرادتهـا الحيـاة، تمتلـك حريـة الفعـل، كلـما التفـت حولهـا القيـود ازداد ذلـك العنـاد الجميـل، كانـت تـأتي إليَّ رغـم كل الحصـار الـذي هـي فيـه، أعـرف أنهـا سـتأتي وتسـقي شـجرة الليمـون في كل صبـاح، يحرضهـا عـلى ذلـك الحنـين إلى "عـلي"، لا بـأس، مـن أن أتمـاسـك قليـلًا.

وأنـا مسـتلقية عـلى "العنقريـب"، نسـمة خفيفـة ترطـب عـرق وجهـي، أحـس بغفـوة خفيفـة أسـتعيد فيهـا أصـداء الإيقاعـات التـي كنـت أتحالـف وأذوب معهـا قبـل قليـل، أغفـو ويقـودني نعـاسي إلى حلمـي الشـفيف، أراني مندمجـة مـع "عبـد الباسـط" في لحظـة أشـتهيها منـذ كنـت صبيـة، أغـوص عميقـا في تفاصيـل أحلامـي، أراني أرجـع قلـم الرصـاص إلى مكانـه الطبيعـي في أذن "عبـد الباسـط" اليمنـى، أحـس بأصابعـه تتحسـس أنوثتـي، أسـمع صـوت منشـاره عـلى الخشـب مختلطًـا مـع نقـرات أصابعـي عـلى "البنقـز"، يختلـط الصوتـان وتمتـد في أحلامـي فيـافي خـضراء وقمـر ينـير سـهولًا متراميـة إلى البعيـد، إلى حيـث تلتقـي السـماء بـالأرض، طيـور ملونـة تحلـق في صباحـات نديـة، أطفـال وبنـات المـدارس يرفلـون في العافيـة والأزيـاء الملونـة، عـوالم مـن الانسـجام والألـق، أصحـو عـلى ضربـات رقيقـة خفيفـة عـلى البـاب الخارجـي، أخـرج مـن غفـوتي تلـك ومـن أحلامـي تلـك الخـضراء

اليانعـة، أتحـرك نحـو البـاب، أفتحـه، إنـه "عثـمان أبـو وجعـة"، يـأتي كأول الحاضريـن، يـأتي شـفيفًا كنسـمة المغربيـة.

- كيف الحال؟
- أهلًا يا أبو وجعة، اتفضل.

ويدلـف "عثـمان أبـو وجعـة" إلى الداخـل، جلـس في مكانـه المعتـاد وأنـا أناولـه كـوب مـاء مـن الزيـر، قـال لي بلهفـة:

- سمعتِ الحكاية يا مريم؟
- حكاية شنو؟
- الشيخ مصطفى الدرويش.
- مالو؟
- حكاية غريبة جدًّا.
- إن شاء الله خير.
- لاقيتو يا مريم، ما عرفتو.
- كيف يعني؟
- أول حاجة لابس بنطلون وقميص.
- معقول؟
- زي ما بقول ليك يا مريم.
- ما لابس الجبة المرقعة؟

- بقول ليك لابس قميص وبنطلون.

- السبحة في يدوو لا......

- ما دي المشكلة، سلام حق الله بق الله، وين السبحة يا زول؟ زاغ من الكلام، يا خي حتى الدقن حلقا.

- لا، والله حكاية غريبة.

- زاغ مني يا مريم، جرى مني عديل كده.

- معقول يا أبو وجعة؟

- والله دا الحصل يا مريم.

وحملت دهشتي معي وأنا أدخل المطبخ، ترى ما الذي حدث حتى يخلع "الشيخ مصطفى الدرويش" جبته المرقعة ولحيته الغزيرة وتفقد أصابعه حميمية تلامسها مع حبات مسبحته.

5

يتخلخل الدخان بين مسامات جلدي، أحس أنني أنتمي إلى النداوة، دخان الطلح يتسرب من بين فتحات النافذة المغلقة ومن بين فتحات باب غرفتي المغلق، هذا الصباح، جلست على حفرة الدخان، أحاول بذلك أن أمنح جسدي نداوته، أهيئ نفسي للدخول في تحقيق حلمي بزواجي من "عبد الباسط"، من وراء كثافة الدخان داخل غرفتي أتامل اللوحة المعلقة على الجدار الذي أمامي، بخط يدي كنت قد كتبت هذه المقطع الشعري الشفيف، كان ذلك أيام دراستي في كلية المعلمات، ما زلت أمارس علاقتي بفن الخط، من وراء غلالة الدخان تتعلق عيوني بحروف تلك الجملة الشعرية، كل حرف يعيدني إلى ذلك الزمن الجميل، عيوني تمتص الحروف

"ألقاه في اليم مكتوفا وقال له إياك إياك أن تبتل بالماء".

أتأمل هذا التضاد المعلن بين الحروف السوداء وبياض الورقة التي كتبت عليها، البرواز تأكل بعض الشيء، أحس بالدخان وهو يخرج متسربًا بين فتحات الشملة تحت أقدامي ومن على عنقي، أحس به يداعب أحلامي، هأنذا أدخل في مجمرة من العبق هذا الصباح وكأني أدخل مجمرة عواطفي تلك التي تحرضني على حياة جديدة ولكنها تعربد فيها أحلامي القديمة، أتابع بعيوني حركة

الدخـان الشـفيفة وأحـس بـأن جسـدي ينضـح بالنـداوة، بعـد أسـبوع سـيتم عقـد قـراني بــ "عبـد الباسـط".

بالأمـس جـاءني "عبـد الباسـط"، جـاء وتـرك خلفـه كل اعتراضـات أسرتـه عـلى زواجـي بـه، حـكى لي كيـف أن أخـاه "حسـب الرسـول" اعـترض عـلى هـذه الزيجـة ولـوح في وجهـه بـأن الأسرة كلهـا سـتقاطعه إذا تـم ذلـك الأمـر، إنهـا تلـك الدائـرة القديمـة نفسـها التـي عصفـت بأحلامـه وأحلامـي، جـاءني "عبـد الباسـط" وقـد حسـم أمـره تجـاه كل الاعتراضـات، جـاء منتميًـا إليَّ وخـرج بعـد أن حددنـا موعـد عقـد القـران، وهأنـذا أجلـس هـذا الصبـاح عـلى حفـرة الدخـان، أدخـل هـذا الطقـس الأنثـوي منتميـة إلى البحـث عـن نـداوة جسـدي، منتميـة إلى عاطفـة بكـر وبرغـم تراكـمات السـنين والأحـداث، تراكـمات الوقائـع وانكسـارات الأحـلام، تراكـمات وتراكـمات أهـرب منهـا وأراني صبيـة تحلـم بفـارس أحلامهـا، الدخـان يتـسرب مـن بـين ثنايـا الشـملة موزعـا لهيـب عاطفتـي تلـك عـلى كل أنحـاء الغرفـة، أذوب بـكل مسـامي في اشـتهاءاتي إلى تلـك اللحظـة، لحظـة الاندمـاج مـع "عبـد الباسـط"، أنظـر إلى السـاعة الموضوعـة عـلى المنضـدة القريبـة منـي لأعـرف كـم مـن الزمـن قـد قضيتـه داخـل الشـملة، أتنـاول صنـدوق السـجائر مـن عـلى المنضـدة، أشـعل سـيجارتي كي أضيـف نوعًـا آخـر مـن الدخـان إلى ذلـك الدخـان الخـاص الـذي يتحسـس أنوثتـي المهيـــأة للدخـول في حيـاة جديـدة سـتعيدني حتـما إلى خصوبتـي، تـرى هـل مـا زلـت خصبـة؟ كـم يقلقنـي هـذا السـؤال، لا تحتمـل الأنثـى فقـدان الخصوبـة، أتلـذذ بسـيجارتي، أغـرق في اسـترخاء عميـق، أعتـلي قمـة شـهوتي، أتحسـس انفعـالاتي الأنثويـة النقيـة والدخـان يعبـق ويمـلأ فضـاء غرفتـي، عطـر

الطلـح يقـذف بي إلى هنـاك، حيـث تتجوهـر أنوثتـي معلنـة رغباتهـا الخفيـة، تقـذف بي إلى ذلـك الإحسـاس الشـفيف الـذي ينبـض بـين عروقـي تلـك التـي أحـس بهـا وقـد تهيـأت لخصوبتهـا، أغمـض عيـوني وأرحـل في عـوالم اشـتهاءاتي، أغفـو وأراني أوزع عاطفتـي ورغبـاتي في خيـوط الدخـان الـذي يلفنـي ويتـسرب مـن بـين أخـرام الشـملة، أنـا أجلـس عـلى نـار شـفيفة تجـادل أنوثتـي وتذهـب بهـا نحـو تلـك النـداوة، أمـوع بـين كثافـة الدخـان المعطـر، أصابعـي قدمـي أحـس بهـا نديـة، أتحسـس بأناملـي السـاقين وأتحسـس نـداوة جسـدي وأنـا داخـل هـذه المجمـرة، العـرق ينتـح مـن جسـدي بسـبب تلك السـخونة التـي أغـرق جسـدي فيهـا، أطفـئ سـيجارتي وأنظـر مـرة أخـرى إلى السـاعة وأحـس بـأني مكتفيـة هـذا الصبـاح بهـذا القـدر مـن البحـث عـن نـداوتي، أزيـح الشـملة مـن عـلى جسـدي وأنهـض، أتأمـل جسـدي وقـد بـدأ يتجمـر بدخـان الطلـح، أطفـئ برشـة مـاء حفـرة الدخـان، أرتـدي ملابـسي وأسـترخي عـلى السريـر، أشـعل سـيجارة أخـرى، أفتـح النافـذة كي يتجـول ذلـك الدخـان المعطـر في الفضـاء، أفكـر في الخـروج، لا بـدَّ مـن ذلـك، أفتـح بـاب الغرفـة، أجلـس عـلى "العنقريـب" في "الراكوبـة"، أكمـل تلـذذي بالسـيجارة، أشرب كـوب مـاء مـن الزيـر، أدخـل غرفتـي مـرة أخـرى، أرتـدي ملابـس الخـروج، أحـس بي خفيفـة كنسـمة في هـذا الصبـاح، أسـقي شـجرة الليمـون الصغـيرة، أحـواض الزهـور، أفتـح البـاب الخارجـي، أغلقـه بالمفتـاح مـن الخـارج.

هـا هـي "حبوبـة بتـول" تجلـس أمـام بيتهـا، لا أسـتطيع أن أتفاداهـا، لا بـدَّ أن أمـرَّ بهـا، اقتربـت منهـا وهـا هـي تسـتقبل قدومـي إليهـا بلهفـة.

- صباح الخير.

- يسعد صباحك، على وين؟

- مشاوير قريبة.

- هي كدي، تعالي شوفي البامية دي.

- بجيك راجعة.

- الرسول كان تجي.

لا مفر منها أبدًا، غيرت اتجاهي إليها.

- البامية دي سمحة وحاتك، بتخاطفوها، أخلي ليك منها كومين ولا تلاتة؟

- كويس، خلي لي تلاتة أكوام.

- أها، دحين وين ماشه.

- مشاوير قريبة، بجيك راجعة.

- الرسول كان تقعدي، خشم خشمين.

- بجي بعدين أتونس معاك، أنا مستعجله يا حاجة.

- العجلة من الشيطان، هي الدنيا دي طايرة.

نهضت من جلستها واقتربت مني متحمسة وملأت أنفها بدخان الطلح الذي يعبق مني.

- كدي كدي، دخان السرور، الدخان دا شيلتي الصباح دا ولا شنو؟

- آآي يا حاجة بتول، أها، خليتك بي عافية.

وتحركـت منهـا إلا أنهـا لاحقتنـي بخطواتهـا وأمسـكت بيـدي وجرجرتنـي نحوهـا.

- هي تعالي، ما سمعتي نفيسة قالت شنو؟

- نفيسة منو؟

- نفيسة أخت عبد الباسط.

- آها، مالا؟

- وحاتـك قالـت مريـم دي مـا بتخـلي عبـد الباسـط إلا يمشـو لي فـكي.

- فكي؟

- آي وهسـه قالـوا الليلـة ماشـين فريـق الفلاتـة الـوراني عشـان يطفشـوا عبـد الباسـط دا منـك، هـو العـرس متـين يـا مريـم؟

- بعد أسبوع.

وهربت من إلحاح "حاجة بتول" وصوتها يلاحقني:

- يـا بتـي كان في قسـمه خـلاص، إلا عـاد كان بقـت مـا في قسـمه، دخانـك دا ببقـى بنـدق في بحـر سـاكت.

هربـت منهـا وأعـرف أن موضـوع دخـاني سـيكون بمنزلـة خـبر جديـد سـتتنقل بـه "حبوبـة بتـول" بـين آذان نسـاء الحلـة، لا يهـم، أدلـف إلى ذلـك الزقـاق الضيـق الـذي سـيخرج بي إلى تلـك الفسـحة

أمام السوق، خطواتي أحس بها خفيفة، نادرًا ما أخرج في الصباح ولكن هذا الصباح كانت بي رغبة حارقة في الخروج، لا بدَّ من البحث عن "الشيخ مصطفى الدرويش"، غيابه عن مملكة الأحلام أصابني بنوع من القلق، لا أحتمل هذا الغياب خاصة وأن "الشيخ مصطفى الدرويش" يمر بهذا التحول، إضافة إلى أن وجوده في عقد قراني أمر له وقع خاص عندي، لذلك قررت أن أبحث عنه، كنت أسمع أنه لم يعد يتجول كعادته، لذلك قررت أن أذهب إليه في منزله بحي "العصاصير"، خرجت من ذلك الزقاق إلى تلك الفسحة متجهة إلى السوق، لا بدَّ من عبور السوق حتى أصل إلى حي "العصاصير"، أحس بخطواتي تمتلك نشوتها الخاصة وأنا أقترب من السوق، حركة الصباح في السوق تشعرني باستمرار الحياة، زحمة زنك الخضار الحميمة، الأكشاك الصغيرة المرصوصة في الجانب المقابل للجزارة، عربات الكارو التي تقودها الحمير ترابط بين أول السوق وأخرى متنقلة بأصناف مختلفة من البضائع، تحمل وتفرغ ويتجه بعضها إلى "السوق البرة"، أحس بالعيون تتابعني وأنا أقترب من الجزارة، كنت أريد أن أسأل "حمد الجزار" عن "الشيخ مصطفى الدرويش"، لعله يعرف شيئًا عنه، اقتربت من ترابيزة "حمد الجزار" الذي استقبلني ببشاشة معلنة.

- خطوة عزيزة يا مريم.
- إزيك يا حمد.
- مرحب بيك يا مريم، عايزة لحمة؟!
- لا، أبدًا.

كان "ود النصيـح" يقـف أمـام ترابيـزة "حمـد" يحتـج بصوتـه الواهــن قائـلًا:

- ما تمشيني يا ولدي.
- كدي بايع جدك دا أول.

كان "ود النصيح" قـد تجـاوز السـبعين، لكنـه لا يتخـلى عـن حيويته أبدًا.

- أها يا جدو طلباتك.
- اديني أوقتين ضان.

ابتسـمت أنـا وقـررت أن أتابـع هـذه المبايعـة ذات الأصـداء القديمة، لا زال "ود النصيـح" يتعامـل بـ"الأوقـة"، هـو الآن في حالـة خرفـه ذلـك الطريـف يتعامـل بأسـعار قديمـة، أسـعار الأربعينيـات، مسـجون في ذلـك الزمـن القديـم، والغريـب أنـه يتملـك عملـة ذلـك الزمـن، يتعامل بالمليـم، يقـال إنـه كان يدخـر تلـك العملـة القديمـة بدفنهـا تحـت شـجرة مهوقنـي كبـيرة في منزلـه وقـد أخـرج ذلـك الكنـز في لحظـة تجـلي وأصبـح يتعامـل بتلـك العملـة القديمـة في سـوق البلـدة، يدفـع بالمليـم في زمـن أصبحـت فيـه أسـعار بالجنيهـات، أجـبر "ود النصيـح" كل سـوق البلـدة عـلى ذلـك بعـد أن تـم اتفـاق سري بـين التجـار في السـوق وبـين أسرتـه، فهـو يدفـع بالمليـم ويحاسـب التجـار أسرتـه بعـد ذلـك عـلي مـا يأخـذه بأسـعار اليـوم، أتابـع عمليـة البيـع والـشراء بـين "ود النصيـح" و"حمـد الجـزار" الـذي يحـاول أن يجـد موازنـة بـين معيـار الأوقـة ومعيـار الكيلـو، بعـد أن جهـز "حمـد" طلـب "ود

النصيح" الخرافي أدخل "ود النصيح" يده في جيبه وبأصابع مرتجفة بفعل الزمن وتلك الشيخوخة التي يحاول أن يتمرد عليها وأحرج مبلغ ثلاثة ملاليم وأعطاها لـ"حمد الجزار" الذي أخذها منه قائلًا لكن يا جدو الأوقة أبقت بي مليمين. وهنا صرخ "ود النصيح" في وجه "حمد الجزار" مشهرًا سبابته المرتجفة

- يا ود، أنت حرامي ولا شنو؟ متين بقت الأوقة بي مليمين؟ الأوقة بي ملين ونص فقط.

وحمل "ود النصيح" لفافة اللحم ووضعها داخل تلك القفة القديمة وتحرك بخطوات مرتجفة بينما شاركت "حمد" ضحكته تلك الحميمة، وابتعد "ود النصيح" عن الجزارة متحركًا نحو زنك الخضار بملاليمه تلك وبخرفه ذلك الذي سجن ذاكرته في زمن قديم.

- أكتر زول مروق في البلد دي جدك "ود النصيح".

- والله مروق، هسه يا "حمد" الملاليم دي بتسوي بيها شنو؟

- ما مشكلة، هو ما يشتري اللحمة إلا مني وبعد داك بحاسب أولادو، أولادو متفقين معاي على كده.

- قلت ليك "حمد"، ما شفتا "الشيخ مصطفى الدرويش" قريب دا؟

- لا، دا اختفى من السوق خالص، ما قاعد يجي ليهو زمن.

- يعني كان مشيت بيتم في العصاصير بلقاهو؟
- والله يا مريم، علمي علمك.
- طيب، مع السلامة.

مـررت بكشـك المرطبـات الـذي كان يعمـل فيـه "عـلي"، مـا زال الكشـك مغلقًـا، عـاودني ذلـك الإحسـاس الكثيـف بالفقـد، كنـت حـين آتي إلى السـوق لا بـدَّ مـن أن أمـرَّ بـ"عـلي" وكان هـذا المـكان تضـج فيـه الحيويـة، هـا هـو الآن تسـيطر الكآبـة، حـين اقتربـت مـن صـف الدكاكـين لمحنـي "جـاد المـولى" واعـترض طريقـي بوقاحتـه الأزليـة، يبـدو أنـه سـمع بمـشروع زواجـي مـن "عبـد الباسـط"، نظـر إليَّ بقسـوة قائـلًا:

- ما كنت عارف يا مريم إنك بتكرهيني للدرجة دي.
- هسه إن شا الله تكون عرفت؟

وأزحتـه مـن طريقـي وتجاوزتـه متجهـة إلى الشـارع الضيـق الـذي سـيؤدي بي إلى حـي "العصاصـير"، تركـت ضجـة السـوق الصباحيـة خلفـي، أحـس بخطـواتي متلهفـة إلى لقاء "الشـيخ مصطفـى الدرويش"، ذلـك الكائـن الشـفيف، تـرى هـل سـأجده، سـبق أن زرتـه في هـذا البيـت، عاودتـه فيـه حـين كان مريضًـا بالملاريـا، لـه غرفـة بعيـدة عـن باقـي الغـرف في البيـت، يبـدو أنـه كان منعـزلًا عـن أفـراد أسرتـه المكونـة مـن الجـدة المقعـدة بسـبب الشـلل وأختـه الوحيـدة العانـس وأخيـه "محمديـن" وهـو الـذي يديـر العصـارة التـي تركهـا لهـم والـده، "محمديـن" تـرك "الشـيخ مصطفـى الدرويـش" لتهويماتـه الصوفيـة ولم

يحاول إجباره على العمل في العصارة، كانت العلاقة بينهما حميمة أو هكذا أحسست بذلك حين زرته.

أقترب الآن من حي "العصاصير" وتستقبلني روائح المكان الخاصة، رائحة السمسم المعصور وأصوات جمال العصارة تلك المنهكة والمختلطة بأصوات العصارة نفسها، أدخل في زقاق ضيق وأدلف يمينا إلى حيث يوجد بيت "الشيخ مصطفى الدرويش"، أنقر بإصبعي على الباب، تفتح لي طفلة صغيرة هي بنت "محمدين"، أدخل إلى الداخل، أرفع صوتي بالسلام، تخرج "رقية" أخت الشيخ مصطفى الدرويش العانس من الغرفة القريبة إلى الباب، تبدو عجفاء ويابسة الملامح، تعتصرني يدها المخشوشنة بالسلام.

- اتفضلي.

وأدخل معها إلى الغرفة، تجلسني على السرير، تتفحصني بنظرات فيها من الفضول ما يكفي لارتباكي، تخرج من الغرفة، أتجزل بنظراتي حول الغرفة، تدخل "رقية" حاملة إلى كوب ماء، قبل أن أشرب أسألها مصطفى موجود؟

- مصطفى أخوي سافر الصعيد.
- متين؟
- قبل أربعة أيام.
- إن شا الله خير؟
- خير.

- مشي لي غرض يعني؟ ولا....
- والله يا هو سافر، إلا ما قال لينا غرضو شنو.
- ما قال بجي متين؟
- كان ما جاء الليلة بجي باكر، أنتِ مغروضة فيهو؟
- والله طول ما جانا، قات أشوفو مالو.
- كتر خيرك.
- ممكن أخلي لي وصية؟ عندك ورقة وقلم؟

ونهضت "رقية" وبحثت عن ورقة وقلم وجاءتني بقلم رصاص وكراسة قديمة، نزعت منها ورقة وكتبت:

"الشيخ مصطفى الدرويش.

تحياتي وودي

لماذا هذا الغياب؟

أسمع عنك أخبار غريبة

حضرت إلى منزلكم وعلمت بأنك سافرت إلى الصعيد

سأتزوج عبد الباسط

لا بدَّ من حضورك

أحتاج إليك

أختك

مريم ".

طبقت الورقة ومددتها إلى "رقية" التي كانت تنظر إليَّ بدهشة لا توصف.

- لمن يجي أديهو الورقة دي.

وهممت بالوقوف كي أخرج وخرجت "رقية" من دهشتها لتقول لي:

- هي، عليك النبي كان تفطري معانا.
- معلش، مشواري طويل.
- هي ما افطور جاهز، عليك النبي كان تقعدي.

ولاحقتني بإصرارها الحميم حتى خرجت.

في عودتي عبرت السوق، اشتريت بعض الحاجات، كانت الحركة في السوق قد هدأت قليلًا وحين خرجت من السوق إلى تلك الفسحة، تكاثف عندي القلق على "الشيخ مصطفى الدرويش"، ضجت في ذهني التساؤلات، كنت أرغب في أن أعرف الذي حدث له، ما سر هذا التحول الذي سمعت عنه، خطواتي أصبحت هامدة بعض الشيء وأنا أعود دون أن ألتقي به، في طريقي إليه كنت أحس أنني أركض نحو رغبتي في اللقاء به وهأنا أعود بخطوات هامدة دون أن ألتقيه، ترى هل سيعود؟

عبرت الفسحة ودخلت في ذلك الزقاق، في منتصفه قابلني "حسب الرسول" شقيق "عبد الباسط" الأكبر قادمًا من الجهة

الأخـرى بدراجتـه وحـين وصلنـي نـزل مـن عـلى الدراجـة وقـذف بهـا عـلى الأرض واندفـع نحـوي صارخًـا:

- شـوفي يـا مريـم، أنـا مشـيت ليـكِ في البيـت، ابعـدي عـن عبد الباسـط ولا مـا حيحصـل خـير.

- وأنت مالك هائج كدا؟

- والمابهيجنـي شـنو؟ شـوفي يـا مريـم، قـصر الـكلام، عبد الباسـط مـصر يتزوجـك ونحنـا في البيـت كلنـا رافضـين العـرس دا، ولا دا حصـل حنتـبرأ منـو، لا هـو مننـا ولا نحنـا بنخصـو، عشـان كـدا أنـا جيـت أقـول ليـك مـا في داعـي للـزواج دا، مـا معقـول يـا مريـم، الموضـوع دا اتحسـم زمـان، تـاني الرجعـو شـنو؟ دي حكايـة غريبـة.

أزحتــه عــن طريقــي وتجاوزتــه، لكنــه ظــل يلاحقنــي بالشــتائم والـصراخ حتـى إن أبـواب البيـوت عـلى جانبـي الزقـاق قـد فتحـت وأطـل منهـا ذلـك الفضـول الـذي احتـل عيـون الذيـن عـلى تلـك الأبــواب وخاصــة عيــون النســاء، لم أهتــم بصراخــه وشــتائمه وهــو يتابعنـي وأنـا أعـبر الزقـاق، أعـبر ذلـك الفضـول القاتـل، خرجـت مـن الزقــاق و"حســب الرســول" يقــود دراجتــه خلفــي ويشــتمني وأنــا أمـشي، مـررت بـ"حبوبـة بتـول" و"حسـب الرسـول" خلفـي بشـتائمه الصارخـة، وصلـت إلى بـاب بيتـي وانضمـت "حبوبـة بتـول" إلى مراقبـة الحـدث وتركـت مكانهـا وتبعـت وتابعـت "حسـب الرسـول" وشـتائمه، اقـترب منـي وأنـا أمـام البيـت، قـذف مـرة أخـرى بدراجتـه عـلى الأرض واقــترب أكــثر منــي وأنــا ألــوذ بصمتــي وأحــاول أن أدخــل المفتــاح في الثقـب كي أدخـل إلى بيتـي، صرخاتـه الشـاتمة جعلـت أبـواب الجـيران

تفتـح لتصبـح لهـذه المشـاجرة جمهـور مـن نسـاء وأطفـال الجـيران وبعـض العاطلـين مـن الشـباب، "حبوبـة بتـول" تقـترب أكـثر بتلذذهـا المعتـاد وحـين تمـادى "حسـب الرسـول" أكـثر وجـذب يـدي ليسـقط المفتـاح عـلى الأرض، حاولـت أن أتمسـك بصمتـي وحـين صرخ في وجهـي قائـلًا:

- شوفي، نحنا دمنا ما بنخلطو بي دم الخدم والعبيد.

و بقـوتي كلهـا، صفعتـه عـلى وجهـه صفعـة قويـة حتـى كاد يسـقط مترنحًـا عـلى الأرض وحـاول أن يـرد صفعتـي، ولكنـي صفعتـه مـرة أخـرى وبقـوة أكـثر حتـى وقـع عـلى الأرض وتدخـل بعضهـم بينـي وبينـه، التقطـت المفتـاح مـن عـلي الأرض وفتحـت بـابي ودخلـت وأغلقتـه خلفـي ولاحقتنـي شـتائمه اللاذعـة والصارخـة وأنـا أسـتلقي منهكـة عـلى "العنقريـب" في "الراكوبـة" وأخرجـن آهـة عميقـة مـن داخـلي ضـد كل تلـك الضجـة في الخـارج.

6

بعد أن صارت الأصابع التي داعبتني في صباي حقًّا شرعيًّا لي، "عبد الباسط" انعتق، أراه ممتلئًا بالحياة، ها هو المنشار مغروزًا على الخشبة، ورشة النجارة داخل مملكة الأحلام، صوت المنشار يشعرني بزخم الحياة، عرق "عبد الباسط" على وجهه يبدو جميلًا، احتفلنا احتفالًا بسيطًا وسط ضجة أسرة "عبد الباسط" ولا مبالاة البعض، ذلك البعض المنحاز إلى الحياة، وأمتص هذا الفعل المعلن دهشة الباقين، "منى" لم تستطع الحضور، "جاد المولى" ثار في وجهي بصوت أسمعه أنا وحدي، أرسلت لي "منى" ورقة كتبت لي فيها التهاني والأمنيات، الدفء، خصوبة الحياة، نمتزج أنا و"عبد الباسط" في ليل طويل ممتع، التلاشي في اللحظة التي كنا نبحث عنها ونحن في مقتبل العمر، وجدناها والعمر قد تراكمت عليه السنين، ما زلنا قادرين على العطاء، ضربات الشاكوش والقلم على أذنه اليمنى متخللًا ذلك الشيب الأبيض الجميل، حركة أصابعي على ذقنه الخشن، أحس بهذا المذاق حين تخربش أصابعي بنعومة خاصة على "البنقز"، ضحكة عينيه حين يستلقي على "العنقريب" ويقذف لي بسيجارة متفحصًا كرسي أو منضدة انتهى لتوه من عملها وأنا أمتلئ منه حتى التلاشي، أراقب تلك الأصابع وهي تعمل وألتصق بها ليلًا وذاكرتي تجادل الصبا القديم

وتحـرض الخصوبـة، شـجرة الليمـون، شـجرة الليمـون تنمـو ومملكـة الأحـلام تضـج بالحيـاة.

- مريم، ما نأكل لينا لقمة؟

أهـم إلى المطبـخ، أجهـز الصينيـة، الجمعـة مـا زالـت نشـاطًا ثقافيًّـا، أغسـل حبـات الطماطـم والجرجـير، "النعسـيان" غنـى في الجمعـة السـابقة لـ"خليـل فـرح"، أتنـاول السـكين وأدخـل دندنتـي الخاصـة، أسـمع صـوت "النعيسـان" يدخـل عـوالم "خليـل فـرح" مـن مداخـل "عـلي" عـلي هـذه العـوالم، لذلـك حرضتـه عـلى رباعيـة لـ"خليـل فـرح"، اسـتفز "عـلي" تراكـم الدوبيـت في ذاكـرة "النعيسـان"، أغـرف مـن الحلـة عـلى الصحـن الكبـير، أسـتعيد عذوبـة صـوت "النعيسـان" وأدنـدن

"أتاريك أنتِ فسله

بقيتِ من برحايا

بتوسد جدار بيتكم

وأحاكي رحايا

ليش يا فريعة

ما بتجودي بي بلحايا؟

في خديداتك

الطير غلب الحاحايه".

أحمـل الصينيـة وأتكـئ عـلى دندنتـي حتـى أصـل إلى «الراكوبـة"،

يتناول "عبد الباسط" الصينية ويضعها على المنضدة وبلهفة أقبلنا على الطعام، أحس أخيرًا بأني قد وجدت شريكي الحميم، أترك "عبد الباسط" مواصلًا أكله وأدخل المطبخ، أضع براد الشاي علي النار، أثرثر في دواخلي، تغيب جريدة الجمعة عن الصدور أحيانًا، أبحث عن المستكة في دولاب النملية، "عبد القيوم" تصدى وبهمة لأمر الجريدة، "عبد القيوم" ذلك القلب الكبير، أبحث عن المبخر، أجده، بالملعقة التي أمامي أتناول جمرات من المنقد.

أحيل "عبد القيوم" إلى المعاش بعد أن خدم متفانيًا كمعلم، لا أعرف أحدًا يتمتع بالحب الإنساني مثله، أنثر حبات المستكة على جمرات المبخر، "عبد القيوم" يستنكر بشدة حين يحس بالتعالي القبلي بين الناس، أقرب دخان المستكة من الكبابي وأتابع الدخان وهو يسجن داخل الكوب الزجاجي المنكفئ علي الصينية، "منى" تساعد "عبد القيوم" أحيانًا حين تستطيع الانفلات من الحصار، أخرج بأواني الشاي من المطبخ، يقلقني أمر "عمر"، إنه ما زال عاطلًا عن العمل، "الشيخ مصطفى الدرويش" غاب طويلًا، إنه داخل قوقعة لا يعرف أحد مداخلها، أزيح صينية الأكل عن المنضدة وبعد أن تناول مني "عبد الباسط" صينية الشاي وضعت صينية الأكل تحت العنقريب، ويضع عبد الباسط صينية الشاي علي المنضدة ويتكئ علي العنقريب، أحس أنني أتكئ على أحلامي، يخرج الدخان شفيفًا وأنا أقلب كباية "عبد الباسط"، أتأمل أصابعه وذراعه المعروقة والشاي، "عثمان أبو وجعة" يفكر في الهجرة هذه الأيام، يبدو أنها مجرد نزوة، يردد هذه الأيام وبتشفٍّ خاص هذه الجملة

- البلد إن أباك كترلو بالنجعات.

تمتص أذني رشفات الشاي من فم "عبد الباسط"، أحس أنني أمتلك العالم، أغرق في موسيقى تلك الرشفات المتسارعة وأدخل مداعبة إياه بصوت رشفاتي أنا، يرشف هو رشفة، أرشف أنا رشفة، أتابعه أحيانًا وأرشف قبله ويتبعني برشفة، ندخل في رشفة واحدة وبصوت منغم، رشفة طويلة ليضع هو الكوب على المنضدة بصوت يعلن نهاية هذه اللعبة الحميمة المرتجلة، وندخل معًا في طقس ضاحك، نفرقع ضحكاتنا، يستلقي "عبد الباسط" على "العنقريب" متسلقًا ضحكته قاذفًا بشبشبه ليحول سقف "الراكوبة" دونه والفضاء.

- أنا ما عارف ليه من زمان أنا ما اتلميت عليك؟

قالها بطريقة تنتمي إلى صدق شفيف، أشهرت على عيوني ذروة الابتسام وبادرته قائلة:

- ما فاتت حاجة، أهو هسه اتلمينا.

ملأ "عبد الباسط" هذا الفضاء الذي هو امتداد الأحلام بآهة عميقة ونهض واقفًا، لملم زوج الشبشب، تناول طاقيته ووضعها على رأسه، تناول صندوق السجائر، قذف لي بسيجارة، أشعل سيجارته وترك الصندوق في مكانه على منضدة النجارة الكبيرة

- مارق مشوار.

اتجـه نحـو البـاب الخارجـي وأنـا أتابـع بعيـوني خطواتـه، تلـك الخطـوات التـي جعلتنـي أدمـن صوتهـا وهـي تركـض ورائي في عتمـة أزقـة وشـوارع الصبا، أقفـل البـاب ورائي، "عبـد الباسـط" حـين ينتهـي مـن عملـه يتمـشى قليـلًا في البلـدة، حـين يرجـع يتسـامر كثـيرًا مـع "جـاد المـولى" الأمـر الـذي يغيظنـي، آه، لـو أدري عـلى مـاذا ينـوي "جـاد المـولى"؟ إن الشـعور بالكراهيـة عـبء ثقيـل.

أنـا مـا زلـت أجلـس عـلى ذلـك "البمـبر" العتيـق، نهضـت مـن مـكاني وجلسـت عـلي ذلـك الكـرسي الـذي صنعـه لي "عبـد الباسـط"، هأنـذا أجلـس عـلى كـرسي تخولـق بـين أصابـع "عبـد الباسـط"، تلـك الأصابـع المشاكسـة دائمًـا في نسـيج ذاكـرة الأنوثـة، ذاكـرتي أنـا، أحـس الآن بـأني أجلـس عـلى عـرش أحلامـي القديمـة، أسـترخي تمامًـا عـلى الكـرسي، أمـد قدمـيَّ عـلى طـرف العنقريـب، أشـعل سـيجارتي وأتابـع خيـوط الدخـان وهـي تخـرج مـن فمـي وأتحسـس انتصـاري، أحـس بـأن كل خشـب الكـرسي ينتمـي إلى هـذا المعنـى المجـرد، الانتصـار، "عبـد الباسـط" يخـرج مـن منـزل أسرتـه ليدخـل بيتـي وبـين هـذا الدخـول وذاك الخـروج قـادني "حسـب الرسـول" شـقيق "عبد الباسـط" متحالفًـا مـع "حـاج عثمان" والـد "منـى" مسـتغلًا صفعتـي لـه، قاتـل "حسـب الرسـول" بشـدة كي يحـول بينـي وبـين "عبـد الباسـط".

في المحكمـة الأهليـة، اسـتطعت أن أبـرر صفعتـي لـه حـين ذكـرت لأولئـك المشـايخ الثلاثـة، "شـيخ عـمارة" وعـلى يمينـه "شـيخ بابكـر" أحـد تجـار البلـدة لكنـه أدمـن وجاهـة المحاكـم وبـه ميـل غريـزي إلى السـلطة والتسـلط، "شـيخ عـمارة" ولحكمتـه المشـهود بهـا وضـع في الوسـط، إلا أن حالـة كـبر السـن كانـت تخونـه وتمنعـه في أحيـان كثـيرة

مـن الحصـول عـلى حكـم مناسـب للقضيـة التـي أمامـه، عـلى يسـار "شـيخ عـمارة" يجلـس "شـيخ زكريـا" حـلاق قديـم في البلـدة، مهاجـر مـن نيجيريـا ووضعتـه قدمـاه هنـا مقتفيًـا آثـار مـن سـبقوه مـن المهاجريـن، ينتـشي "شـيخ زكريـا" إلى درجـة إظهـار ضحكتـه المكتومـة في تلمـس تفاصيـل المشـكلات والقضايـا، ذكـرت لهـؤلاء الشـيوخ في المحكمـة شـتيمته تلـك:

"شـوفي، نحـن دمنـا مـا بنخلطـوا بي دم الخـدم والعبيـد" فانتمت إليَّ المحكمـة الموقـرة وهأنـذا أجنـي ثمـار هـذا الانتماء بجلسـتي المسـترخية عـلى هـذا الكـرسي، حـاول "حسـب الرسـول" في المحكمـة كل الترهـات بمـا في ذلـك أننـي مؤثـرة ومتسـلطة عـلى أخيـه "عبد الباسـط" بالسـحر و باللجـوء إلى فـكي لـه إمكانيـات لا تحـد في أمـور النسـاء، ترهـات، هـي الآن خـارج إحسـاسي بالعـالم، أنـا أجلـس عـلى كـرسي انتصـاري.

في العـاشرة مـن صبـاح ذلـك اليـوم وصلـت إلى المحكمـة الأهليـة، داخـل "كرنـك" كبـير كانـت تعقـد هـذه المحكمـة، جـاء "عمـر" إلى هنـاك و"النعيسـان" و"حامـد" و"حمـد الجـزار" و"حبوبـة بتـول" كانـت أول الحاضريـن، عرفـت أنهـا ذهبـت إلى المحكمـة حـين خرجـت ولم أجـد ضجـة سـوقها الصغـير، لم تفـرش "حبوبـة بتـول" خضارهـا هذا الصبـاح لحرصهـا عـلى تفاصيـل محكمتـي، "حـاج عثـمان" و"حسـب الرسـول" يجلسـان تحـت شـجرة النيـم، حـاول "حـاج عثـمان" أن يبتعد عـن "حسـب الرسـول" حـين رآني قادمـة مـن بعيـد، لاحظـت هـذا الابتعـاد، "جـاد المـولى" جـاء إلى المحكمـة حامـلًا رغبتـه في هزيمتـي، أحـس ذلـك دائمًـا في نظـرات عينيـه، جلـس الشـيوخ الثلاثـة وأعلـن المعلـن "ود القديـل" بصوتـه الدائـم البحـة القضيـة الأولى

- عبد القادر آدم يوسف الشاكي، رحمة الله خاطر عثمان المشتكنو.

دخل الشاكي والمشتكى وتدافع الحاضرون لدخول المحكمة، "حبوبة بتول" وبدراية ملاحظة جلست في المصطبة الأمامية في حين تناثر بقية الخلق على المصاطب الأخرى، جلس بقربي "النعيسان" و"عمر" على مصطبة في الوسط، كان لا بدَّ أن أقتل انتظار محاكمتي بمتابعة القضايا التي قبلي، "عبد القادر" الترزي قدم شكوى ضد "رحمة الله خاطر عثمان"، ابن أحد تجار العيش، تقول الشكوى إن "رحمة الله" أشاع في البلدة أن ابنته الكبرى "حسنية" حامل، وبدأ الشيوخ الثلاثة في تلمس تفاصيل القضية، في حين كان الحضور تتسرب بينهم التعليقات الهامسة، "حبوبة بتول" تضع يدها في كفها وتبرق منها العيون تلك الدقيقة المتابعة وأذناها لا تفرطان في أي جملة يمكن أن يبنى عليها خبر من بين أدق العلائق والعلاقات، تتفرع القضية، تتشبع بالتفاصيل، ويحضر شاهد ويختفي ويحضر آخر ويختفي شاهد حتى جاء دور "كدنكا" ليشهد ضد صديقه "رحمة الله"، يبدو أن ذلك الخبر سبب القضية قد أسهم في نشره هذا الـ"كدنكا" المشهود له بالثرثرة مع إضافة خيال واسع للأحداث، دخل "كدنكا" في شهادته تلك وظل يثرثر ويثرثر، يتنقل وينتقل بين موضوعات لا علاقة لها بالقضية:

- آها يوم داك، آي العصر والله أذكر الساعة تلاتة ونص شوكة وكمان كنا بناكل في طماطم بالدكوة وأذكر إنو رحمة الله قال نمشي سوق الخضار نجيب شطة خضراء، أها أنا قلت ليو...

ويضيع خيط القضية بين تلك التفاصيل التي يحكيها "كدنكا" والشيوخ الثلاثة في المنصة يحاولون لملمة خيوط الانتباه برغم المقاطعات الكثيرة.

- يا ابني، خش في الموضوع.

و "كدنكا" يدخل في الموضوع من باب الخروج.

- أنا أذكر رحمة الله كان لابس قميص كحلي، أيوه، القميص الجابو ليهو منعم من بورتسودان...

- يا ابني، اختصر، الله يرضى عليك.

و"كدنكا" يختصر القدرة على التركيز لدى أعضاء المحكمة، "شيخ عمارة" تخلى عن مقاطعته تلك غير المثمرة في إيقاف ثرثرة "كدنكا"، "شيخ زكريا" لم يستطع إشهار ضحكته المكتومة فلاذ بتشكيل نظرة فارغة في اتجاه "كدنكا"، "شيخ بابكر" يضع يديه على رأسه، ضجرًا من هذه الثرثرة الغريبة، الحضور بدأ يتململ وبطريقة واضحة الإزعاج إلى درجة أن "حبوبة بتول" تدخلت وقاطعت هذا الشاهد الثرثار والذي سجن أحداث القضية في لا موضوع.

- آها أنا قلت ليهو نمشي بي هنا، عارفين ليه؟ آي اسألوني، قولوا لي ليه؟ آها...

وصرخت "حبوبة بتول" في "كدنكا" كان يقف أمامها:

- يا ولدي ما تقول حصل شنو، سليت روحنا.

ويتدخل "شيخ عمارة" محذرًا "حبوبة بتول"

- يا ولية، ما تنضمي.

ويستمر "كدنكا" في ثرثرته ويثرثر ويثرثر، وضاعت تفاصيل القضية بين تلك الثرثرة، فقد الحضور متابعته، الشيوخ الثلاثة استسلموا تمامًا تجاه هذه الثرثرة التي استمرت أكثر من ساعة وفجأة، صمت "كدنكا" والشيوخ الثلاثة ينظرون إليه نظرة فارغة و"حبوبة بتول" تهمس لنفسها قائلة:

- يخربني، كان فهمتا حاجة.

صمت تام، الحاضرون صمتوا، الشيوخ الثلاثة ما زالوا ينظرون إلى "كدنكا" الذي صمت فجأة قاذفًا هؤلاء الشيوخ، كبار السن في متاهة، "الشيخ عمارة" وكمن استيقظ من غفوة مفاجئة، نظر إلى "كدنكا" وقال مقررًا:

- حكمت المحكمة على المتهم كدنكا بي تلاتة شهور و...

لم يكمل "شيخ عمارة" حكمه لأن "حبوبة بتول" قاطعته:

- هيي، شوفو الغبا دا، في شاهد بحاكموهو؟

وضج الحاضرون بالضحك ويحس "شيخ عمارة" بالحرج، ولكن "شيخ بابكر" يستدرك هذا الخلط ويرفع الجلسة مؤجلًا تلك القضة التي ضاعت خيوطها وتاهت معالمها إلى يوم آخر.

يبدو أن قضية "حسنية بت عبد القادر الترزي" المشاع أنها

حامـل قـد سـاعدتني في إنهـاء محاكمتـي في زمـن وجيـز ولم يحتـج الشـيوخ الثلاثـة إلى شـهود، وحـدي أنـا التـي تصديـت لتهمتـي ودافعـت عـن صفعتـي تلـك فانحـاز الشـيوخ الثلاثـة لي وخرجـت مـن تلـك المحاكمـة مرفوعـة الـرأس وهأنـذا الآن أجلـس عـلي كـرسي انتصـاري الـذي صنعـه لي "عبـد الباسـط"، ولكـن برغـم ذلـك، مـا زلـت أجلـس عـلى البمـبر العتيـق، لم أسـتطع التوافـق مـع هـذا الكـرسي في أمسـيات وليـالي مملكـة الأحـلام، ولكنـي أتوافـق معـه حـين أحمـل تلـك الرغبـة الحارقـة في أن أحـول هـذا الكـرسي إلى رمـز لانتصـاري، إلى إيقـاظ خصوبتـي تلـك التـي أحـس بهـا حـين أغفـو عـلى الكـرسي ممـددة قدمـيَّ عـلى حافـة "العنقريـب" كي أدخـل رويـدًا رويـدًا نـواصي غفـوتي، أغفـو عـلى كـرسي انتصـاري.

أسـتعد لمسـاء جديـد، "عبـد الباسـط" يتوسـد ذراعـه وهـو ممـدد عـلى العنقريـب، المملكـة تسـتقبل أعضـاء جـدد، أحلامهـم ليسـت ورديـة، أحلامهـم تعتنـق خشـونة الحيـاة، حـين جـاء "حامـد" لأول مـرة، تمعنـت فيـه جيـدًا، وجـه احتقـب همـوم الحيـاة، مبعـثرًا، يبـدو بـه مـس مـن خجـل قديـم لا يملـك إلا أن يتحـول إلى نغـمات عذبـة تخـرج مـن تلـك الصفـارة التـي يـداوم عـلى عزفهـا، كان يقـول الكثـير بتلـك الصفـارة، غنيـت أنـا وهـو يعـزف محاولـة أن يكـون فعـالًا في مملكـة الأحـلام، تذكـرت حلـم "عـلي" بتكويـن فرقـة غنائيـة، أصبـح "حامـد" يـتردد عـلى بيتـي ويضيـف إلينـا صوتًـا مميـزًا، لا أنـسي حـين بـكى "عثـمان أبـو وجعـة" عـلي نغـمات تلـك الصفـارة الحنينـة وحـين سـألناه قـال إنـه تذكـر طفولتـه حـين كان يرعـى غنـم الفريـق، "حامـد" قـال أنـه يعـرف "عـلي" ووصفـه قائـلًا شـعلة مـن النشـاط والحيويـة،

أعطيناه فقرة ثابتة في يوم الجمعة، كان يقدم فيها ألحانًا متنوعة يحفظ البعض منها والبعض الآخر من تأليفه، يحب "العرقي" ويعشق صبية لا يعرف عنها سواء "إنها ملآنة بالإيقاع"، لا يعمل في مهنة معينة، ولكنه يعمل متنقلًا بين أعمال ومهن عديدة.

بدأ أعضاء المملكة في الحضور، كعادته "عثمان أبو وجعة" أول الحاضرين، "عبد الباسط" يستعد لمشواره اليومي حول البلدة، وجلس "عثمان أبو وجعة" في مكانه المعتاد وجلست معه زجاجته، تري، أين أنت الآن يا "الشيخ مصطفى الدرويش"؟ غاب كثيرًا، الكل يفتقده، "عبد القيوم" جاء بخطواته الثابتة، انحناءة قليلة تكسب مظهره وقارًا ونبلًا.

- إزيك يا مريم.
- أهلا عبد القيوم.
- في احتمال "عادل" يجي اليومين ديل.
- إن شاء الله يا عبد القيوم.

حاصرني فرحي، "عادل" ابني، كم أشتاق إليه، تخرج وعمل معيدًا بكلية الزراعة، يشمل فرحي حين يأتي، ابنتي "بثينة" آخر مرة أراها فيها كان يوم عرسها، لا تكاتبني ولا تكاتب "عبد القيوم" والدها، أخي "حسن" لا أعرف عنه شيئًا، خرج من البلدة ولم يرجع، تمامًا كما فعل والدي، آخر ما عرفته عنه أنه يعمل ضابطًا في الجيش.

- إزيك يا مريم.

لم أرد عليـه السـلام، الوغـد "جـاد المـولى"، وجـه يرتسـم فيـه الحقد، لـو أعـرف عـن مـاذا يتحـدث مـع "عبـد الباسـط"، جـاء "رمضـان" يقـود ابنـه "خـضر"، أحـد الوافديـن الجـدد إلى مملكـة الأحـلام، "خـضر" ينتظـر والـده ودائمًـا يجلـس بقربـه.

- جبتا الكراسات يا خضر؟
- آي، جبتهم.
- خلاص، بعد شوية، نبدأ نذاكر.

"رمضـان" العامـل في الطاحونـة، يـأتي دائمًـا ممتلئـا بالدقيـق حتـى شـعرات أنفـه، ملابسـه وحتـى أصابـع قدميـه، منهـكًا يـأتي، الحـزن يحتـل مسـاحات عـلى عينيـه، حـين جـاء ومعـه ابنـه "خضر" أحسسـت أن وراءهـما أحزانًـا ودموعًـا، تقربـت إلى "خـضر"، أصبـح صديقًـا لي، سـألني مـرة:

- أنا حلاقي أمي تاني؟

لم أملـك الإجابـة عـن هـذا السـؤال لأن والدتـه رحلـت عـن عالمـه الصغـير قبـل عـام ونصـف، "خـضر" أصبـح صديقـي، أتحـدث معـه بحريـة ويتحـدث ويسـأل عـن المـوت كمـن يسـأل عـن عـدو قديـم، حاولـت أن أجعـل وقتـه هنـا مفيـدًا، صرت أراجـع معـه دروسـه وأحكي لـه قصصًـا، حـين يختمـر "رمضـان" حتـى الثمالـة يحتضنـه بعنـف حميـم والدمـوع في عينيـه، أصبـح "خـضر" مـن أعضـاء المملكـة، يتحـرك فيهـا كيـف يشـاء، كان يعجـب بصفـرة "حامـد"، يداعبـه "عبـد القيـوم" كثـيرًا، "النعيسـان" جـاء والعصـا ترافقـه.

- حفظتها يا مريم.

- متأكد يا زول؟

- تمام التأكيد.

:- يعني يوم الجمعة الجاية بنسمعها؟

قطع شك، وقبل الجمعة كمان.

"النعيسان" مشغول بأشعار "خليل فرح"، "خضر" يصعد على ظهر أبيه، "عثمان أبو وجعة" يقذف كأسه في فمه بعصبية، "عبد القيوم" نظراته تبحث بعمق عن شيء معلق في الفراغ، جلس "النعيسان" بعد أن وضع عصاته على الأرض، "جاد المولى" يجلس على نواياه، جاء "حامد" وجلس بقرب "النعيسان"، لم يأتِ "عبد الباسط" حتى الآن، الليلة سأخبره، ترى كيف يستقبل هذا الخبر.

- خضر، تعال نبدأ.

جاء مسرعًا وكراساته في حقيبته الملوثة بالدقيق، بعدنا قليلًا، رفعت شعلة اللمبة قليلًا وبدأنا نذاكر، كان في الصف الأول الابتدائي، أتذكر معه طفولة "عادل" و"بثينة"، ترى كيف يستقبل "عبد الباسط" هذا الخبر؟

- سلام عليكم يا جماعة.

جاء "عبد الباسط"، جلس بالقرب من "جاد المولى"، وغد، لا أعرف ماذا ينوي.

- خالتي مريم، الغول شال فاطنة؟
- أنت اكتب في الأول الحاجات القلتها ليك وبعدين بوريك.

شجرة الليمون تنمو، أحلامنا تستيقظ وتقاوم عنف الحياة، البلدة تتداعى، الناس بين موات وحياة، أزمات متلاحقة وأزمات مفتعلة في المواد التموينية، هموم كل الناس تصب في مملكة الأحلام، تلك الهموم والأحلام البسيطة، "خضر" يكتب مستغرقًا، الليلة سنفرح يا "عبد الباسط"، الفرح يمتد، "عادل" ابني سيأتي، تحرك "جاد المولى" خارجًا، نظر إليَّ نظرة أعرف معناها جيدًا، "عبد الباسط" دخل الحجرة، توقف عن الشراب هذه الأيام.

- مريم.

دخلت إليه، كان واقفًا، لا أدري لماذا شعرت بقلقه حين نظر إليَّ.

- كدي اقعدي.

جلس وجلست.

- إن شا الله خير؟

صمت طويل، قال بعدها:

- بعد دا، حقو تسيبي الشغلانة دي.
- إنه هو، "جاد المولى"، نفس الطلبات القديمة.

صفارة "حامد" بدأت تسرب نغمة حزينة وممتدة.

- ليه؟ الحاصل شنو؟

- لا، بس، أنا قلت.....

خفت أن يضيع خبري السعيد.

- ما فاهمة يا عبد الباسط.

- يعني، مش أحسن؟

وقف قلقًا.

- عبد الباسط، أنا حامل.

جلي ببطء، خرجت، ما زال "خضر" مستغرقًا في الكتابة، نغمات الصفارة تتجمع عليها انفعالات كل الجالسين، الليل يمتص نغماتها، جلست على البمبر، التفتُّ إلى "خضر" قائلة:

- خضر، الغول شال فاطنه..

7

حـين صـارت الأصابـع ترتخـي إلى درجـة المـوات وصـار المنشـار ينشـد نغمـة تتصـارع فيهـا الرغبـات، نغمـة مـن الحـزن والقلـق والـتردد مـا يكفـي تمامًـا أن أغـرق في هواجـسي، "عبـد الباسـط" يحـاول الابتعـاد عـن عالمـي، بـدأ هـذا الابتعـاد بالتوقـف عـن الـشراب، أحـس بـه يواجهنـي بصمـت متعمـد، عـاد "عبـد الباسـط" إلى صمتـه ذاك العنيـد، لم يحـاول مـرة أخـرى أن يتحـدث في رغبتـه تلـك المقلقـة جـدًّا بالنسـبة إليَّ، أن أتـرك عمـلي الـذي اخترتـه بعـد كل تلـك الطلبـات الدائمـة لأتـرك عمـلي كمعلمـة، قـررت أن أصمـد أمـام رغبـة "عبـد الباسـط" تلـك مهـما كلفنـي ذلـك، أعـرف مـن أيـن تكوَّنـت لديـه هـذه الرغبـة، إنـه "جـاد المـولى"، أصبـح "عبـد الباسـط" يخـرج في مشـواره اليومـي ولا يعـود إلا حـين يكـون بيتـي خاليًـا مـن أصدقـاء المسـاء الدائمـين، بـدأ يعلـن نفـوره بابتعـاده حامـلًا العنقريـب ليضعـه خلـف الغرفـة، لم أهتـم بذلـك، لذلـك ظـل يخـرج ويعـود بعـد أن يخـرج الجميـع، لم أهتـم أيضًـا بذلـك، أحـس بـه منكمشًـا تجاهـي، حيويتـه في العمـل بـدأت تقـل، صـوت منشـاره عـلى الخشـب أصبـح فاتـرًا ومحايـدًا، كـم أكـره الأصـوات المحايـدة، إنهـا تقـذف بي نحـو التبلـد، أحـاول الهـروب مـن هـذا الحيـاد وأنتمـي إلى نبضـات الحيـاة داخـل رحمـي، تلـك النبضـات المنتميـة إلى خصوبتـي، تهـزم هـذه النبضـات

هواجسي وتدعوني وتدفعني إلى التماسك، أمتصها، تلك النبضات وأنظر إلى "عبد الباسط" في فتوره ذاك وفي حياده المعلن تجاهي أحيانًا والخفي أحيانًا أخرى، أنظر إليه وهو يداري نظراته عني.

- في شنو يا عبد الباسط؟
- بالنسبة إليَّ شنو يعني؟
- لا، بس، حاسة بيك ما مرتاح.
- لا، ما في حاجة.

وقذف بالشاكوش على المنضدة وتحرك من أمامي هاربًا حتى من حديثي معه، دخل الغرفة وخرج دون أن يقول جملته تلك المتكررة دائمًا

- أنا طالع مشوار.

لا يهم فأنا موعودة بالطفولة، تركت التدخين تمامًا، حريصة على جنيني الذي بدأ يتخولق في رحمي، لذت إلى أوقات راحة مستسلمة إلى ذلك الإعياء المصاحب لبدايات الحمل، قللت من الجلوس على ذلك البمبر العتيق في أمسيات مملكة الأحلام الصاخبة أحيانًا والهادئة أحيانًا أخرى، "عبد الباسط" خرج ولم يغلق الباب الخارجي وراءه، أتحرك من مكاني كي أغلقه، أتذكر أن عليَّ أن أتابع عملية التقطير، أغير اتجاهي إلى المطبخ، أزيد جذوة النار قليلًا، أخرج وأتجه نحو الباب الخارجي، أغلقه وفي عودتي إلى المطبخ، أسمع أطفالًا في الحي يصرخون محمد معانا، ما تغشانا.

وأعـرف أنهـم يطـاردون ريحًـا حلزونيـة صغـيرة وقبـل أن أصـل إلى الراكوبـة ألمـح تلـك الريـح الحلزونيـة "الإعصـار" تتجـه نحوهـا تحمـل بـين دوائرهـا الحلزونيـة المنفعلـة بعـض النفايـات والأوراق، أقـف متأملـة تلـك الريـح وهـي تمـر بالراكوبـة وتحمـل معها نشـارة الخشـب المتناثـرة عـلى أرضيـة الراكوبـة وتحـت منضـدة النجـارة وتمـضي تلـك الريـح إلى حيـث تمـضي والنشـارة تدخـل في تلـك الدوائـر الحلزونيـة مانحـة إياهـا لونهـا الأصفـر إلى تكويـن تلـك الريـح في حـين تناثـرت بقيـة النشـارة عـلى الحـوش، تابعـت بعيـوني تلـك الريـح حتـى اختفـت ومـن ثـم دخلـت المطبـخ لأشرف عـلى عمليـة التقطـير.

أسـتلقي عـلى العنقريـب الصغـير الموضـوع بالقـرب مـن أدوات التقطـير، أسـتلقي عـلى جنبـي واضعـة رأسي عـلى كفـي اليـسرى وأتابـع القطـرات البلوريـة وهـي تنـزل قطـرة قطـرة عـلى الإنـاء، تمتـص أذني سـقوط القطـرات، بـين كل قطـرة وقطـرة زمـن إيقاعـي محسـوب، أفرقـع بأصابعـي شـاغرة لحظـة الصمـت بـين القطـرة والأخـرى محاولـة قيـاس هـذا الزمـن الإيقاعـي، أطمـئن لسـقوط القطـرات، عيـوني تتابـع بشـفافية مكثفـة تكـون القطـرات حتـى تسـقط محدثـة بسـقوطها ذبذبـة موسـيقية خفيفـة لهـا ذلـك الوقـع السـاحر في ذاكـرتي الإيقاعيـة، قطـرة تسـقط عـلي الإنـاء، أمتـص سـقوطها الموسـيقي وأجـوب في عوالمـي وهواجـسي، قطـرة أخـرى تتكـون وأنـا أدس هواجـسي في بلورهـا الصـافي، تسـقط القطـرة عـلى الإنـاء، أحـي بنبضـات الجنـين في دواخـلي، تهـزم تلـك النبضـات هواجـسي تجـاه نوايـا "عبـد الباسـط" المغلقـة، قطـرة أخـرى، يتباهـى فرحـي الموعـود بالطفولـة، أسـتدعي تلـك اللحظـة التـي أخصبنـي فيهـا "عبـد الباسـط"، أحـس بتلـك

الرعشـة الخفيفـة التـي اسـتقبلت فيهـا أنسـجتي سر التلاقـح، قطـرة، أسـقط معهـا بانفعـالاتي وأذوب في نغمتهـا حـين تصـل إلى الإنـاء، أحـس بأصابـع "عبـد الباسـط" تخربـش مكمـن الأنوثـة في صـدري، وجهـه وهـو يخفـي غموضًـا يدخلنـي عنـوة منطقـة هواجـسي، أنفاسـه اللاهثـة لحظـة الانعتـاق، بـروده المتعـب تجـاه حديثـي معـه، قطـرة تتكـون وتنزلـق نحـو الإنـاء، صـوت "عـلي" يأتينـي مـن بعـد بعيـد، يختلـط صوتـه مـع عذوبـة النغمـة في ذوبـان القطـرة مـع القطـرات التـي في الإنـاء.

- مريم، الحب قيمة كبيرة..

الضـوء الداخـل مـن نافـذة المطبـخ يندمـج في بلـور القطـرة المتكـون الآن، أغـير جلسـتي، تسـقط القطـرة عـلى الإنـاء، أرى "منـى" وهـي تسـقي شـجرة الليمـون، أقـارن بـين بلـور دمعتهـا وبلـور القطـرة المنزلـق في الفضـاء الصغـير بـين فتحـة أنبـوب التقطـير والإنـاء، قطـرة تسـقط وأخـرى تتكـون وأنـا تتقاطـر في ذاكـرتي الصـور وتتداعـى الأحـداث قطـرة تلـو قطـرة، أخـرج مـن اتـكاءاتي عـلي العنقريـب، أتحـرك نحـو أدوات التقطـير، أزيـد جـذوة النـار، أغـير مـاء التكثيـف الـذي يمـر بـه الأنبـوب، أتنـاول علبـة الثقـاب وأتنـاول معهـا مغرفـة صغـيرة، أتحـرك إلى الإنـاء المحتفـي بموسـيقى تلـك القطـرات، ألمـح جـدل ضـوء النافـذة مـع بلـور قطـرة متكونـة، أتجـه إلى النافـذة أغلقهـا مانعـة الضـوء مـن الدخـول، بـاب المطبـخ أغلقـه أيضًـا، اختفـى في ذلـك الظـلام بلـور القطـرات لتتكشـف موسـيقى سـقوطها عـلى الإنـاء، أقـترب بخطـوات حـذرة نحـو الإنـاء، بالمغرفـة أحمـل القليـل

مـن ذلـك "العرقـي" المقطـر لتـوه، أجلـس عـلى العنقريـب، أقـرب منضـدة صغـيرة نحـوي، أسـكب "العرقـي" مـن المغرفـة عـلي المنضـدة وبسرعـة أشـعل عـود الثقـاب وأقربـه مـن "العرقـي" المسـكوب عـلي المنضـدة ليتوهـج أمامـي كرنفـال مـن اللهـب الأزرق المتـدرج نحـو البنفسـجي، أبعـثر خيـوط اللهـب بأصابعـي عـلى المنضـدة وتمتلـئ عيـوني بجـمال هـذه اللوحـة المتحركـة والمشـكلة مـن ذلـك اللهـب ذي الألـوان الشـفيفة، يتراقـص هـذا الكرنفـال اللاهـب أمـام عيـوني ويمتـزج بموسـيقى سـقوط القطـرات عـلي الإنـاء ومـن خـلال هـذا الامتـزاج الشـفيف بـين الصـوت الإيقاعـي والسـنة اللهـب ذات الألـوان الشـفيفة والمتماوجـة عـلى المنضـدة، أحـس بـأني أمتلـك فكـرتي المحوريـة عـن الكـون، أحـس بروحـي المتمـردة تندمـج في طقسـها المنتمـي للحيـاة.

صـوت سـقوط القطـرات، ألسـنة اللهـب المتـماوج الزرقـاء المتدرجة نحـو البنفسـجي ونبضـات الجنـين في أحشـائي تلـك التـي أعلنـت خصوبتهـا تمنحنـي القـدرة عـلى الهـروب مـن هواجـسي تجـاه نوايـا "عبـد الباسـط" الغامضـة والتـي تقـذف بي في متاهـة مـن التسـاؤلات التـي تحـاول أن تتوقـع مـا سـيحدث، لا يهـم، فليحـدث مـا يحـدث، بـدأت ألسـنة اللهـب الشـفيفة تنطفئ رويـدًا رويـدًا والقذارات تسـقط وعيـوني اسـتطاعت أن تلمـح مـن خـلال ذلـك الضـوء الخفيـف بلـور قطـرة متكونـة وقـد التحمـت وامتزجـت متلونـة بألـوان ألسـنة اللهـب الذاهبـة إلى الانطفـاء، سـقطت القطـرة عـلى الإنـاء وانطفـأ كرنفـال اللهـب، نهضـت مـن مـكاني لأفتـح البـاب، سـمعت طرقـات عـلى البـاب الخارجـي، خرجـت مـن المطبـخ متجهـة إلى البـاب الخارجـي، في طريقـي وقعـت عينـي عـلى النشـارة المتناثـرة عـلى الحـوش، نظـرت

إلى منضـدة النجـارة الكبـيرة ولاحظـت أن منشـار "عبـد الباسـط" لم يكـن مغـروزا عـلى الخشـب، حـين فتحـت البـاب وجـدت "عثـمان أبـو وجعـة" يمـلأ فتحـة البـاب بابتسـامته الصافيـة وأشـهر في وجهـي مظروفًـا أبيـضَ ودلـف إلى الداخـل قائـلًا:

- جواب ليك يا مريم، وصلني الصباح في المدرسة.

وبلهفة خطفت الخطاب من يده، قرأت ما هو مكتوب عليه:

"إلى الأسـتاذ عثـمان نـور الديـن - أبـو وجعـة – ومنـه إلى الأخـت مريـم حامـد"،

حاولـت أن أعـرف المرسـل مـن خطـه لكنـي فشـلت، كنـت أتوقعـه مـن "عـادل" ابنـي.

قلت:

- أغشاك وأوصلو ليك قبل المساء.
- شكرا ليك يا عثمان، كدي ادخل نتغدى سوا.
- لا، أنا الليلة الميز عليَّ.

وخـرج "عثـمان أبـو وجعـة" خفيفًـا كنسـمة، أغلقـت البـاب ودخلـت المطبـخ، مـا زالـت القطـرات تمـارس وجودهـا الإيقاعـي عـلى الإنـاء، فتحـت النافـدة وعـلى الضـوء الـذي احتـل المطبـخ، فتحـت الخطـاب بأصابـع متلهفـة وأخرجـت ورقـة مطبقـة مـن داخـل الظـرف، فردتهـا بلهفـة متزايـدة جعلتنـي أبحـث عـن اسـم المرسـل في نهايـة

الخطـاب، واهتاجـت مشـاعري متلاحمـة مـع سـقوط قطـرة وأنـا أقـرأ اسـم المرسـل "أخـوكِ الشـيخ مصطفـى الدرويـش"، أضـم وبحميميـة عاليـة خطـاب "الشـيخ مصطفـى الدرويـش" إلى صـدري وبـين امتـزاج موسـيقى القطـرات وهـي تتسـاقط عـلى الإنـاء ونبضـات الجنـين في أحشـائي أتحسـس كلـمات "الشـيخ مصطفـى الدرويـش".

"مريم

لن تستطيع الكلمات أن تنقل إليك دفء التحايا

عـلى كل، هـي تحايـا شـفيفة شـفافية ذلـك الوجـد الصـوفي، تحيـة كنسـمة الصعيـد بعـد خريـف ماطـر، تحيـة كرائحـة الدعـاش هـي تحيـة يـا مريـم منـي إليـك، أنـا الـذي أحـس بـك في جنوحـك الجميـل وتمـردك ذلـك المتأصـل الملامـح

مريم

هل ما زلت تنقرشين بأصابعك على "الدلوكة"؟

تعرفـين، أنـا أنحـاز إلى الدلوكـة قبـل البنقـز، طاريـك يـا مريـم وطـاري صوتـك الدافـئ المطبـوع عـلى ذاكـرتي وأنـت تغنـين

من بف نفسك

يا القطار

وهدير نفسك

قلبي طار

وينو الحبيب؟

إنت شلتو

جيبو يا القطار

مريم

أنـا هربـت يـا مريـم، لم أحتمـل غيـاب "عـلي" عـن دنيـاي، لا أحتمـل البلـد مـن دون "عـلي"، حاولـت أن أتصالـح مـع موتـه، جادلت كل الفلسـفات التـي تـبرر المـوت، لم تسـتطع أن تـبرر لي مـوت "عـلي"، "عـلي"...

يمتلـئ وجهـي بالدمـوع، ألمـح مـن خلالهـا قطـرة تتكـون وتسـقط عـلى الإنـاء، أمسـح بطـرف فسـتاني دموعـي مـن عـلى وجهـي وأعـود للقـراءة

"أنـا أعـرف أن المـوت هـو الحقيقـة الوحيـدة في العـالم الغامـض المـليء بـالأسرار، ولكنـي لم أتقبلـه كحقيقـة في حالـة "عـلي"، يـا مريـم مـات "عـلي" واهتـزت قناعـاتي، انكشـف لي ذلـك المسـتور فبـدت حيـاتي سـخيفة، ارتجفـت أوصـالي، لم أعـد أنتمـي إلى ذلـك النقـاء وتلـك الشـفافية، لم أعـد أحـس بـأن هـذا العـالم متواصـل ومتصـل مـع عـالم آخـر خالـد، لم يعـد هنالـك بالنسـبة إليَّ عـالم بعـد هـذا العـالم أحلـم أن أعيـش فيـه، ينتابنـي شـعور يـا مريـم، أن هـذا العـالم ينتهـي بالمـوت، كفـرت بـكل أفـكاري تلـك التـي تحلـم بعـالم نقـي بعـد المـوت، ضاعت فكـرتي الصوفيـة بمـوت "عـلي"، فقـدت أصابعـي جدالهـا النقـي مـع حبـات المسـبحة، لذلـك نـثرت حبـات المسـبحة في وسـط السـوق وخلعـت تلـك الجبـة المرقعـة والتـي أحسسـت بهـا كـدرع ثقيـل عـلى جسـدي، جسـدي الـذي بـدأت أحـس بأهميتـه بعـد مـوت "عـلي"،

موتـه الـذي أفقـدني شـفافية الصـوفي وأحالنـي إلى حالـة ترابيـة، حالـة شـهوانية يلهـث كل كيـاني إلى إشـباعها فتعهـرت إلى جرجـة النـتن.

مريم

صدقينـي، لم أملـك إلا هـروبي مـن العـوالم التـي جمعتنـي بـ"عـلي"، العـالم قـاسٍ مـن دونـه.

أنـا هنـا، في الصعيـد، أوجـد في حـالاتي الترابيـة هـذي وأحـس بالتبلد ولا أتـذوق سـوى طعـم خيبة أفـكاري وانكسـاراتي.

مريم

عرفـت أنـكِ تزوجـت "عبـد الباسـط"، أتمنـى لـك السـعادة، أنـا هنـا لي رفيقـة أحـاول أن أحـس بالحيـاة معهـا، اسـمها "خديجـة الشـينة"، الشـينة لأنهـا جميلـة جـدًّا فقُبِّـح اسـمها خوفًـا مـن السـحر والعـين، أنـا مرافـق يـا مريـم، ولكننـي أسـتطيع أن أتقافـز مـن حسـناء إلى حسـناء أخـرى، ألم أقـل لـكِ، لقـد تحولـت إلى حالـة ترابيـة.

مريم

توقفت عن البحث عن النقاء والشفافية

تحيـاتي إلى "النعيسـان" و"أبـو وجعـة" و"عبـد القيـوم" و"عمـر"، مـاذا فعلـت "منـى"؟ هـل اسـتطاعت التماسـك؟ تحيـاتي أيضًـا "عبـد الباسـط" ولـكل مـن يسـأل عنـي.

أخوكِ، مصطفى الدرويش.

أعـدت قـراءة خطـاب "الشـيخ مصطفـى الدرويـش" مـرة أخـرى وحروفـه تهتـز أمـام عيـوني المتحالفـة مـع دموعـي.

بعد أن نزلت العتمة على الدروب، جاء "عبد الباسط" متوترًا

- مريم، اديني قزازة.
- جيد لي، جيد لي، خلاص رجعتا؟

قلت ذلك بأسلوب تمثيلي وأنا أضحك، نظر إليَّ طويلًا، نظرت إليه باحثة عن بسمة بين شفتيه، لم يبتسم، حمل الزجاجة وجلس على العنقريب ولم يقل شيئًا، "عبد القيوم" و"النعيسان" يتحدثان غالبًا عن "الشيخ مصطفى الدرويش" الذي أصبح محور الحديث بعد أن تجول خطابه إليَّ بينهم، "أبو وجعة" حين جاء أضحكني كثيرًا.

- تعرفي يا مريم، الواحد بفتش في الأيام دي لي حواشه.
- حواشة ولا اليمن؟
- كلام فارغ، قلت ليك حواشة بس.

ضحكنا وجلس في مكانه، "أبو وجعة" صاحب نوع مميز من الضحك حين يضحك أتذكر ذلك المثل - ضحك الرجال بكاء - "رمضان" جاء ساهما وراءه حزن عميق، ابنه "خضر" بقربي بعد أن طلبت منه أن يرسم بقرة، "رمضان" يدخل يده في جيبه ويعد نقوده القليلة، كان يعطيني جنيهًا ويأخذ نصف الزجاجة، أحيانًا يطالبني بالمزيد فلا أبخل عليه، بدأت صفارة "حامد" تشرخ عتمة هذا الليل، "أبو وجعة" يتحرك مع النغمة في أسى عميق، "عبد القيوم" في صمته النبيل، "خضر" أوقف الرسم ويطالبني

بحجـوة، "جـاد المـولى" بـين فينـة وأخـرى ينظـر إلى "عبـد الباسـط"، "رمضـان" يـده عـلى رأسـه، "عمـر" يهمـس في أذن "النعيسـان" لينشـد "النعيسـان"

"درب روح

درب غرقان

وتائه جوه

في العتمة

بداية السكة جوايا

نهاية السكة ودايا

وقميرة السعد

راجياني

على البلد

البقت ضلمة".

الصفـارة امتصـت صـوت "النعيسـان" وذابـت ممتـدة في شـوارع البلـدة، "حامـد" نظرتـه إلى البعيـد منطلقًـا مـع عمـق النغـم.

- خلاص،...... كفاية.

صرخـة دوت مـن "عبـد الباسـط" الـذي كان يشـير بأصابعـه مترنحًـا نحـو الجميع:

- كلكم برا، يلا من هنا، اطلعوا برا.

كان "عبـد الباسـط" يـصرخ في الجميـع، ذهبـت إليـه، دفعنـي بعيـدًا بيـده، تماسـكت حتـى لا أسـقط عـلى الأرض.

- قلنا برا، يلا الشارع، ما أشوفكم تاني هنا.

الجميـع واقفـون، لا أحـد يتحـدث وهـو يـصرخ بشـدة وهيـاج ذهبـت نحـوه.

- ابعـدي يـا مريـم، قلنـا بـره، خـلاص مـا في شراب هنـا، مـن بكـرة مـا في شراب خـلاص، مـا تتحركـوا، وأنـتِ يـا مريـم تبطـلي شـغل خالـص، فاهمـه؟

نظرت إلى "جاد المولى" كان يبتسم بخبث.

- برا كلكم، برا، برا، فاهمة يا مريم، يلا.

صفعتـه بقـوة، بعنـف، بـكل مـا أملـك مـن قـوة، وقـع تحـت أقدامـي وصرخـت فيـه:

- بـرا، أنـت يـا عبـد الباسـط، يـلا، اتحـرك بـرا البيـت دا يـلا، هسـه، قلـت ليـك بـرا.

وقـف مترنحًـا واتجـه في صمـت نحـو البـاب وقبـل أن يخـرج "عبـد الباسـط" صرخـت في "جـاد المـولى":

- وأنت يا جاد المولى، برا وما أشوفك تاني هنا.

- أنا يا مريم؟

- أيوا، أنت، تاني ما تعتب على الباب دا، سامع، برا، برا.

وخـرج "عبـد الباسـط" يتبعـه "جـاد المـولى" وغرقـت أنـا في بـكاء عميـق حتـى إن الجميـع التفـوا حـولي ومـن بـين دموعـي وصـوتي المتهـدج بالبـكاء، طلبـت مـن "حامـد" العـزف عـلى الصفـارة، وامتـد نغـم حزيـن شرخ ذلـك الصمـت الحزيـن الـذي خيـم عـلى الجميـع، أعـاد ذلـك النغـم الحزيـن إلى ذاكـرتي تلـك الريـح الحلزونيـة وهـي تحمـل معهـا نشـارة الخشـب وتمـضي في طريقهـا.

8

اعتـدت هـذا المـذاق، مـذاق الوحـدة، قـدري أن أكـون وحيـدة دائمًـا، أن أنتمـي إلى فكـرتي تلـك التي قذفـت بي في متاهـات التحـدي، التحـدي لـكل تلـك القيـود التـي تحـاول سـجني في أفـكار الآخريـن حتـى لـو كانـوا هـم أقـرب إلى كل خلجـاتي وأحلامـي وآخرهـم "عبد الباسـط"، حلمـي الأول، فكـرتي في الانتـماء إلى رجـل خطـف منـي إحسـاسي البكـر بأنوثتـي، أدمنـت وحـدتي وتآلفـت معهـا، يبـدو أن حريتـي في وحـدتي، هكـذا تقـول تجـاربي مـع زيجـاتي الثـلاث، ولكنـي أحـس بـأن وحـدتي قـد تكشفـت لأني لم أكـن أتصـور أن يحـدث مـا حـدث، لم أكـن أتصـور...

- خالتي مريم.. خالتي مريم.

أنهض من رقدتي، ألتفت نحو مصدر الصوت الهامس.

- خالتي مريم.

إنهـا "منـى" تطـل برأسـها مـن عـلى الحائـط، أراهـا منكوشـة الشـعر، أقـترب منهـا، أسـتطيع أن أرى شـحوب وجههـا يبـين ويختفـي مـع دفقـة مـن ضيـاء القمـر الـذي كان متسربًـا بـين السـحب، أحـس أننـي أمـشي إليهـا مهرولـة وحافيـة القدمـين حـين وخـزني حجـر صغـير

في باطـن قدمـي، أقـترب منهـا أكـثر لأرى جفونهـا متورمـة وعيونهـا مطفـأة النظـرات، أسـتند بكفـي اليمنـى عـلى حائـط الجالـوص وتقذف "منـى" بهمـس كل الدنيـا إلى أذني بجملـة صغـيرة وبصـوت مرتجـف لا يملـك إلا ذلـك الارتجـاف في صراعـه مـع غـول الخـوف المرعـب بكـره.

قذفـت نحـوي بورقـة صغـيرة واختفـت وراء ذلـك الحائـط، تابعـت نظـراتي تلـك الورقـة التـي حملتهـا نسـمة هـذا الليـل بعيـدًا عنـي، فحصـت بنظـرة قلقـة ذلـك الفـراغ الـذي تركـه وجـه "منـى" فـوق الحائـط، تحركـت نحـو تلـك الورقـة الصغـيرة، انحنيـت بصعوبـة كي التقطهـا، أنـا في شـهري السـادس، هرولـت نحـو غرفتـي، غـيرت اتجاهي نحـو العنقريـب المرمـي في فـراغ ذلـك الجـو الموحـش، تناولـت مفتـاح الغرفـة مـن تحـت المخـدة، نسـيت أن ألبـس شبشـبي، قدماي تلامسـان خشـونة الأرض وهرولتـي تـزداد نحـو الغرفـة، بأصابـع مرتجفـة فتحـت البـاب، تحسسـت بيـدي ظـلام الغرفـة باحثـة عـن علبـة ثقـاب، ارتبـاكي قـذف بكـوب زجاجـي عـلى الأرض، يـا لهـذا الرنـين الخافـت المرعـب المتحالـف مـع ظـلام الغرفـة، صـوت تهشـم الزجـاج جمـد أقدامـي في مكانهـا، تذكـرت أننـي حافيـة القدمـين، تحسسـت بأصابعـي أماكـن احتـمالات وجـود علبـة الثقـاب، لم أجدهـا، أخـرج مـن الغرفـة، ضيـاء صـافٍ مـن القمـر المنفلـت بعيـدا عـن السـحب، ألقـي بنظـرة عـلى الحـوش، البنابـر الصغـيرة متناثـرة هنـا وهنـاك، أتجـه نحـو المطبـخ، كـم هـو موحـش هـذا المـكان وكـم أنـا وحيـدة، كان قبـل سـاعات هـذا الحـوش يضـج بالحيـاة، أفتـح بـاب المطبـخ بلكـزة مـن يـدي اليمنـي، كفـي اليـسرى مضمومـة عـلى تلـك الورقـة الصغـيرة التـي أحـس بأنهـا قـد اعترقـت، أحـس بمسـاماتي تنتـح بالعـرق، أخـيرا وجـدت علبـة

الثقـاب، أهـرول الي غرفتـي، مـا أقـسى الأماكـن الخاليـة، أدخـل غرفتـي، أشـعل عـود الثقـاب، أتحـرك نحـو اللمبـة الموضوعـة عـلى المنضـدة، يمـوت عـود الثقـاب بـين أصابعـي، أشـعل عـودًا آخـر، أضـع الـورق الصغـيرة عـلى المنضـدة وأهيـئ دخـول الشـعلة إلى شريـط اللمبـة وأرفعـه إلى أقـصى ارتفـاع وتهجـم أصابعـي عـلى الورقـة الصغـيرة التـي كانـت قـد تكـورت داخـل كفـي، أفردهـا بأصابـع مرتجفـة.

"أنا محبوسة

طلعوني من المدرسة

مفروض أعرس واحد ما بعرفوا،

قريبنا مغترب

حأشرد بكرة".

آه، بطـرف فسـتاني أمسـح العـرق مـن عـلى وجهـي بينـما أصابـع يـدي اليـسرى تتشـبث بالورقـة الصغـيرة، أقرأهـا مـرة أخـرى، أحـس بحـدة الخـط الـذي كتبـت بـه هـذه الجمـل التلغرافيـة المختومـة بقـرار حـاد، جلسـت متهالكـة عـلى السريـر، العـرق ينتـح مـن كل مسـامي، نهضـت وأطفـأت اللمبـة وخرجـت مـن الغرفـة، لم أغلقهـا متأكـدة مـن عـدم نومـي وأتحـرك متراخيـة نحـو العنقريـب، نسـمة بـاردة تمـر عـلى عـرق وجهـي، تمـددت عـلى العنقريـب، نظـراتي تتابـع القمـر الـذي انحـرف عـن وسـط السـماء، أحـس بفرفـرة الجنـين في بطنـي، أضـع يـدي عـلى بطنـي، سـاهمة نظـراتي، كانـت أصابعـي عـلى بطنـي تتحسـس نبضـات الجنـين، واضـح هـذا الليـل بقمـر مكتمـل وهـدوء مرعـب وصخـب في الدواخـل، أتملمـل، أغـير اتجـاه رقـدتي،

نظراتي تمتص الكآبة التي تعربد في فراغ الحوش، "البنابر" الصغيرة تتناثر هنا وهناك، أحس بها تعلن اشتهاءها للذين كانوا يجلسون عليها، مرعب هذا الصمت ومقلق هذا الفراغ، كم أشتهي الآن أن أدخن، أتململ، خوف خفي يحتل دواخلي، أهرب بنظراتي في فراغ الحوش، لكن، لا مفر، ها هي نظراتي تصطدم بطاولة النجارة الكبيرة المستطيلة بالراكوبة وأعرف أنني أدمنت وحدتي، وحدتي، أتمرد عليها وأرى "عبد الباسط" يقف خلف تلك الطاولة ويشتعل بالحركة ذهابًا وإيابًا مع حركة "الفارة" وهي تصقل الخشب، أرى العلامات التي يضعها بقلم الرصاص علي الخشب، أرى يده المعروقة وهي تضرب بالشاكوش على مسمار يغوص مع كل ضربة في مسام الخشب، أراني وعيوني تتعلق بقلم الرصاص وهو يتناوله من على أذنه ويعيده إليها، أسمع صوت رشفة الشاي مع كل هدنة لصراع المنشار مع الخشب، أراه يرتشف رشفة ويعود إلى المنشار المغروز علي لوح الخشب، أحس هيامي بحبات العرق على وجهه، أرحل مع ضحكته المبحوحة إلى عوالم ممتدة، ها هي ضحكته تدغدغ حواسي، قطة قفزت من الحائط أعادتني إلى هذا الفراغ الكئيب.

أستعيد وجه "منى" من فوق الحائط، أتململ أكثر، أحس برعشة ذلك الخوف الخفي، إنها تلك القسوة التي حاصرت أحلام "منى"، أحس بأني عاجزة عن التصرف، ماذا أفعل؟ أغير رقدتي على الجانب الآخر، أغمض عيوني عن كل ذلك الضياء الموحش والفاضح لكآبة ووحشة المكان، كم أنا وحيدة ومرتبكة في هذا الليل، أهرب نحو ذاكرتي، أتقافز فيها، يعيدني وجه "منى" وشعرها المنكوش إلى اللحظة القريبة الماضية، أتذكر دمعتها وهي تمتزج

بالماء الـذي تـروي بـه شـجرة الليمـون تلـك التـي زرعهـا "عـلي"، يـا لهـذا العـذاب الـذي حـاصر أحلامهـا، أسـمع همسـاتها وهـي تخـترق الحائـط، أحـس بفرفـرة الجنـين في بطنـي، أتململ، أغير رقـدتي، أحـدق إلى السـماء، نجمـة بعيـدة لا تملـك الانـزواء بضـوء خافت تجـاه كل هذا الضيـاء، القمـر يبـدأ الخطـوات الأولى نحـو الغياب، نسـمة الفجـر تعلن عـن وجودهـا الشـفيف، أرمـي بنظـراتي نحـو ذلـك الفـراغ الموحـش الـذي يسـتعمر كل المـكان فيتكاثـف إحساسي بالوحـدة، أغمـض عيـوني مسـتدعية ذلـك الصخـب الحميـم، صخـب أصدقـاء المسـاء، أولئـك الدائمـين والعابريـن منهـم، أعيـد إلى تلـك البنابـر الخاليـة أولئـك الجالسـين عليهـا، أعيدهـم إليهـا وأهـزم هـذا الفـراغ، هـا هـو "الشيخ مصطفـى الدرويـش" في غفوتـه الثملـة ومسـبحته قـد تدلـت داخـل كأسـه، "عثـمان أبـو وجعـة" مسـتندا بكوعـه عـلى البنـبر وهـو جالـس عـلى الأرض ويـده اليمنـى تمسـح عـلى الـتراب، هـا هـو يقـذف نحـو الموجوديـن بضحكتـه تلـك الصاخبـة، هـا هـم شـلة مـن شـباب الحـي يوزعـون بينهـم الحكايـات والنـكات بصخـب معلـن، هـا هـو "حمـد الجـزار" يحـرض "النعيسـان" عـلى "نمـه[1]"، يتدخـل "عمـر" مسـتميلاً "النعيسـان" إلى ذلـك بزيـادة حصتـه مـن العرقـي، أرى "النعيسـان" يدعـوني كي أقـترب مـن ذلـك المجلـس العـذب.

- شـوفي يـا مريـم، الـزول دا محـروق حشـا كيـف، حمانـا اللـه، يعنـي زولنـا سـيد الغنـاء دا ابتلاهـو ربنـا بي بـرص منعـو مـن مخالطـة النـاس وهـو كان صاحـب مجلـس وبحـب ونسـات القهـوة، أهـا المسـعلة دي فرقـت معاهـو شـديد، أهـا غنـى قـال:

---

(1) نغمة

"السهر المواتر

يا اللمين جنني

الفنجان مدور

والربابة تغني

بعد البي داك

جاء البرص عقلني

يا ريت يا نديم

كان المسكني كتلني".

و أرى "حمد الجزار" يضرب بكفه على الأرض مرتعشًا من الطرب.

- حرم كان تعقب.

ويرتاح "النعيسان" إلى هذا الانتماء ويرحل صوته متلذذا بالشجن المحرض من قبل تلك المعاني، أراهم يأتون ويخرجون، يهزمون فراغ المكان الموحش بثرثرتهم الأليفة، بالمشاجرات الصغيرة المرحلة من تفاصيل النهارات المملة إلى ليالي النشوة والاختمار، يخرجون من هنا متناثرين على تلك الدروب التي تألفت مع خطواتهم المترنحة والتي حتمًا ستؤدي بهم إلى حيث يريدون، أستعيدهم وأستعيد بذلك حياة المكان هازمة هذا الفراغ، حتى "جاد المولى" أجلسه على نواياه وأحس دائمًا تجاه وجوده في المكان بأن الكراهية عبء كبير، أهرب من نظراته الخبيثة وأذوب في تفاصيل مشاجرة أطلت برأسها فجأة بين...

ديك الجيران صفق بجناحيه وصاح معلنًا تباشير الصباح، أتململ، وأحس بفرفرة الجنين في أحشائي وأحس بعلاقتي الوثيقة بالحياة، أتململ أكثر، أغير رقدتي، تحوم نظراتي في فراغ الحوش، ديك آخر صفق بجناحيه وصاح وأرتد أنا من استدعاء الحياة إلى المكان الخالي المحيط بي، أرتد مقذوفة إلى وحدتي تلك المتكاثفة القسوة، تقفز إلى ذاكرتي لحظة خروج "عبد الباسط" بعد صفعتي إياه، خرج وعبء الهزيمة يثقل خطواته، جاءني في عصر اليوم التالي من طردي له، أحتاج إلى قسوتي كي أحافظ علي حريتي، فتحت الباب الخارجي حين طرقه، تفادى نظراتي وقال لي بصوت مرتبك ومتراكم الخجل:

- ممكن أدخل؟
- اتفضل.

دلف إلى الداخل وأنا أتبعه من الخلف وأتحسس صرامتي وقسوتي كي أهرب من ضعفي تجاهه، اتجه نحو الراكوبة، جلس على العنقريب، اتجهت نحو الزير، ملأت له كوب الماء، ناولته، شربه متفاديًا نظراتي، تناولت أقرب بنبر وجلست عليه مواجهة له، نظر إليَّ وهرب بنظره بعيدًا والتفت مشيحًا بوجهه عني بارتباك واضح دون أن ينظر إليَّ، قال بصوت مشروخ:

- يا مريم، أنا، أنا حاهج من البلد دي.

لم أقل شيئًا، لاحظت احمرارًا في عينيه، نظراته منكسرة، لا يقوى تمامًا على النظر إليَّ، لاحظ صمتي.

- معليـش... بـس الاعتـذار مـا ينفـع، أنـا في البلـد دي بقيـت زول دون كرامــة.

وانفجـر في بـكاء متهدجًـا، جعلنــي أبتعـد عنـه، طـاردني صـوت بكائـه المتهـدج حتـى غرفتـي التـي دخلتهـا وأغلقـت بابهـا عـليَّ، كان لا بـدَّ أن أداري عنـه دموعـي، بكيـت أنـا بصـوت مكتـوم، أحـس بخطواته تقـترب مـن الغرفـة، نقـر عـلى البـاب، مسـحت دموعـي بطـرف ثـوبي، فتحـت البـاب، نظـر إليَّ نظـرة خاطفـة وسريعـة وقـال لي مـع السـلامة، أنـا مسـافر بكـرة.

وتحـرك بخطـوات متهالكـة نحـو بـاب الخـروج وأنـا لم أسـتطع السـيطرة عـلى دموعـي وأنـا أتابعـه بعيـوني حتـى خـرج، ينتابنـي إحسـاس كثيـف بالنـدم في أحيـان كثيرة عـلى تـصرفي معـه ومواجهتـي إيـاه بصمـت متعمـد، ولكنـي أحـس أيضًـا وفي أحيـان كثـيرة أن تقديري سـليم ولا يمكـن أن تكـون هنـاك حيـاة مشـتركة بينـي وبينـه لأن مـا حـدث بيننـا حـدث جوهـري، وبرغـم كل شيء تجـدني أحتفـي بفرفـرة خلايـا حيـة مـن "عبـد الباسـط" في أحشـائي، آه، هـا هـي ديـوك الحلـة تتصايـح، تتناقـل الصيـاح وأنـا أبحـث عـن غفـوة تخلصنـي مـن هواجـسي، عتمـة الفجـر الشـفيفة لم تسـتطع أن تمتـص قلقـي تجـاه قـرار هـروب "منـى"، أتململ وأحـاول البحـث عـن احتـمال أن أغفـو ولـو قليـلًا، أحـاول الاسـترخاء، أفشـل ودواخـلي في حـراك مـع الهواجـس، يدخـل صيـاح الديـوك في الرتابـة، يتداخـل مـع صـوت نبـاح كلاب بعيـد، أتململ، أغـير رقـدتي، صـوت شـيخ "محمـود" المبحـوح وهـو يـؤذن لصـلاة الفجـر، أحـاول الانفـلات مـن حصـار هواجـسي، أحـس بـأني قـد احتلنـي تعـب عميـق، أغمـض عيـوني مسـتدعية لحظـة

نـوم ولـو قليلـة، ترتبـك محاولتـي وأنـا أتذكـر وجـه "منـى" وشـعرها المنكـوش مـن فـوق الحائـط، "منـى" في الصـف الثـاني مـن الثانـوي العــالي، مــا أجملهــا وهــي في فســتان المدرســة الأزرق الفاتــح، كان "عــلي" يلتقــط تلميحــي لــه بحساسـية عاليـة حـين أغنـي

"حليلك وأنت جنبي

بالزي السماوي

وجرح الفرقة يمكن

الأيام تداوي".

هـا هـي الفرقـة تنتحـر بنيرانهـا الأيـام، أتململ، أغمـض عيـوني، أحـاول أن أغفـو، أحـاول الابتعـاد عـن ضجـة دواخـلي، أحـس بالنعـاس يـسري في بصعوبـة، يـا لهـذا التعـب العميـق، أغفـو، تختلـط مـع غفـوتي المحتملـة زقزقـة العصافـير وهـي تسـتقبل هـذا الصبـاح الـذي داهمنـي وأنـا في يقظـة إجباريـة بهواجـسي تلـك المحتشـدة في سراديـب وحـدتي القاسـية، أغفـو وأدخـل نـواصي نعـاسي البعيـد المـدي وأصابعـي عـلى بطنـي تتحسـس نبضـات الحيـاة.

أيقظتنــي الشــمس، هــا هــو ظــل الضحــى قــد انمحــى، نهضــت متعبـة وتحركـت نحـو غرفتـي، فتحـت النوافـذ، وقـع نظـري عـلى زجـاج الكـوب المتهشـم والمتناثـر إلى قطـع صغـيرة في أرضيـة الغرفـة، جلسـت عـلى السريـر، تحولـت جلسـتي إلى تمـدد عـلى السريـر محاولـة الرجـوع إلى النـوم، أغمضـت عيـوني، أسـمع صراخًـا عاليًـا، أخـرج مـن الغرفـة، إنهـا "منـى" تـصرخ تحـت سـياط والدهـا "حـاج عثـمان"، تـصرخ "منـى" وأسـمع صـوت والدهـا في هيـاج غريـب مـع ضربـة كل

سـوط يقـع عـلى جسـد "منـى".

"منـى" تـصرخ وأنـا أتحـرك في دوائـر قلقـة داخـل بيتـي وأعـرف أن محاولـة هـروب "منـى" قـد فشـلت، "منـى" تـصرخ بـألم متنـاه، البـاب الخارجـي أسـمع مـن يخبـط عليـه، أتحـرك نحـو البـاب وصراخ "منـى" يطـارد يـأسي وإشـفاقي عليهـا.

خبطـات ملحـة عـلى البـاب، أفتـح البـاب، "حبوبـة بتـول" التـي دلفـت إلى الداخـل والتفتـت إليَّ وأشـهرت لـذة متناهيـة في عيونهـا التـي لم تغسـل هـذا الصبـاح، نظـرت إليَّ "حبوبـة بتـول" وقذفتنـي بسـؤالها الملـح:

- هي، أصبحنا بي الله، ديل مالم؟ أجي.

و لم تنتظـر إجابتـي، بـل هرولـت نحـو ذلـك الحائط بعـد أن حملت معهـا في طريقهـا بنـبرًا عاليًـا وصعـدت عليـه محاولـة أن تشـاهد مـن فـوق الحائـط مـا يحـدث بينـما تلتقـط أذناهـا مـا يمكنهـا مـن صياغـة خبرهـا الصباحـي لهـذا اليـوم.

9

جلس بقربي "حمد الجزار" ليحكي لي عن الجد "ود النصيح" وكيف انزوى وأحجم عن تجواله بملاليمه في السوق مجبرًا لأن أبناءه قد تابعوه حتى اكتشفوا أين يخبئ كنزه الذي انتظروا أن ينفد دون جدوى وقد تراكمت عليهم الديون والجد "ود النصيح" يمارس تسوقه بتلك الذاكرة القديمة، ذاكرة المليم والتي يدفعونها هم بالجنيهات والمتعب في الأمر أن مليم "ود النصيح" يتفوق في الغالب على الجنيه من حيث القيمة الشرائية، كان "حمد الجزار" يحكي عن الجد "ود النصيح" مفتقدًا جولاته في السوق، مفتقدًا ملاليمه التي حتمًا ستتحول إلى جنيهات، منحازًا إلى فعله ذلك الطريف.

- ولدو الكبير محمد، قبال دا حاول يمنع أبوهو من جية السوق، لكن، ما قدر عليهو، ود النصيح ما بتمسك وراجل عنيد، أها، أخوهو حسين شوية حنين وهو صاحب الفكرة إنو أبوهو يشتري من السوق بالمليم وهم يدفعوا بعد داك بأسعار اليومين دي، بس بعد داك المسألة جرت والقروش بقت عليهم كتيرة وود النصيح يا هو يشتري بي الطريقة بتاعتو دي، بشتري مرتاح وعيونو ملانة فكة، ما قروشو كتيرة، صفيحة، قالوا يا مريم ملانة فكة، أها الراجل متجدع في السوق ما عارف الحاصل.

- أهاـ هم، لموا الصفيحة دي يعني؟

- بعد تعب شديد، ولدو محمد تابع أبوهو لحدي ما اكتشف إنو أبوهو داسي الصفيحة دي في الزريبة، أتاري ود النصيح كان يخلي البيت كلو ينوم، يقوم يدرج براحه على الزريبة، شايل بطاريتو، يدبي لحدي ما يصل للصفيحة المغطيها بي الشوالات، آه، يخمش سريع ويملاء جيوبو بالفكة وبعد داك، السوق، أها، محمد اكتشف المكان، مكان الصفيحة، وبعد داك انقطعت حركة ود النصيح في السوق، والله يا مريم افتقدناهو، كان مسلينا.

- يعني تاني ما ظهر في السوق؟

- مرة واحدة، حاول يشتري بالدين، لكن أولادو حذروا ناس السوق، لكن يا مريم والله هسه قالوا حالتو صعبة، نضميهو الكتير داك خلاهو وبقى يعاين بي عيونو بس، متكسر في عنقريبو...

ولولة كثيفة داهمت حكاية "حمد الجزار" عن "ود النصيح"، وقف "حمد" مرعوبًا، ارتبك كل الحضور المتناثر على تلك البنابر في الحوش، صرخات طويلة ومتقطعة مرة وممتدة مرة أخرى، ميزت صوت "علوية" والدة "منى" وهي تولول وتصرخ، ارتعشت دواخلي وأنا أنهض من اتكاءاتي، "النعيسان" تناول عصاه وركض نحو باب الخروج، هرول بعده كل الحاضرين، "عثمان أبو وجعة" اقترب مني مترنحًا يسألني بعيون صامتة عن هذا الذي يحدث، تتكاثف ولولة "علوية" وصرخاتها وأنا أهرول نحو الباب الخارجي وبطني تمتد أمامي، تشرخ صرخات "علوية" صمت ذلك الليل الدامس، الشارع يضج بالمهرولين نحو منزل "حاج عثمان"، يندفعون إلى

الداخـل، يتكثـف العويـل وتتنـوع صرخـات النسـاء، أتـردد في الدخـول مرتعشـة الدواخـل، أسـتند إلى الحائـط مرتجفـة الأطراف، أدخـل كي أرى الرجـال والشـباب وهـم يحاولـون إطفـاء النـيران التـي تصاعـدت عـلى سـقف تلـك الحجـرة التـي احتلهـا الحريـق، ألسـنة النـار تشـع عـلى وجـوه الحضـور المتنـاثر عـلى المـكان، كتلـة مـن اللهـب في ذلـك الظـلام الحالـك وصرخـات نسـاء وبنـات الحـي، صيحـات الرجـال وهـم يجلبـون المـاء في سرعـة مذهلـة محاولـين إيقـاف اسـتمرار الحريـق، "علويـة" همـدت صرخاتهـا وسـقطت غائبـة عـن وعيهـا بينـما يتكاثـف عويـل النسـاء والبنـات، الرجـال والشـباب في حركـة دائبـة لإطفـاء النـيران، لم ألمـح "حـاج عثـمان"، الأطفـال والصبيـة والصبايـا يقـذف بهـم ذلـك الرعـب إلى أنـواع مـن الـصراخ الـذي يهمـد حينًـا وحينًـا يعلـو، النـيران تبـدأ ألسـنة لهيبهـا تخمـد بعـد أن انهـار جـزء مـن السـقف، انهـار إلى داخـل الحجـرة بعـد مـا احترقـت الأعـواد والمـروق.

كنت أقف مرتجفة الساقين، اقترب مني "النعيسان":

- منى يا مريم، منى حرقت نفسها يا مريم.

صرخـت، صرخـت بـكل انتـمائي إلى الحيـاة وركضـت إلى الخـارج، ركضـت وكأننـي أهـرب مـن ذلـك الـذي حـدث، تخطيـت منـزلي، خطـواتي تركـض في دروب وأزقـة الحـي، أمـشي مهرولـة إلى أيـن، إلى حيـث لا أدري، كان "النعيسـان" يتابعنـي، أمـشي وخطـواتي تحـاول الهـروب مـن ذلـك الحـزن الدفـين، لا أحتمـل أن أنتمـي إلى بـكاء أعـرف أنـه لا يفيـد، أمـشي وأحـس بصمتـي يكثـف أحـزاني ويقـود خطـواتي، أمـشي وأسـمع خلفـي بـكاء "النعيسـان" ذلـك المكتـوم وأحـس بـه

يمشي ورائي هاربًا هـو الآخـر مـن مواجهـة ذلـك الحـزن المميـت، أمشي وأصـوات الشـاكلات أحـس بهـا بعيـدة، بعيـدة، هنـاك حيـث تركتهـا ورائي وأنـا أهـرب بخطـواتي أجتـاز الفسـحة بـين الحـي والسـوق، " النعيسـان" يتابعنـي منتميًـا إلى ذلـك الهـروب، تتحسـس خطـواتي هـذا الظـلام الكثيـف، ذلـك الصمـت وأنـا أتجـول بأحـزاني داخـل السـوق، يـا لهـذا الفـراغ القاتـل، موحـش هـذا الليـل الـذي اختـارت فيـه "منـى" انسـحابها الملتهـب مـن هـذه الحيـاة، أدور بخطـواتي دون هـدف و"النعيسـان" يتبعنـي ويتابعنـي ببـكاء مكتـوم ونهنهـات وهمهـمات متقطعـة، لا أملـك تجاهـه إلا أن أحـرض خطـواتي عـلى المـشي، أمـشي وأمـشي، تواقـع خطـواتي دروب هـذا الليـل البائـس الحزيـن، أمـشي وأرى "منـى" متوهجـة في ذاكـرتي وأراهـا وهـي تسـقي شـجرة الليمون، أتابـع دمعتهـا وهـي تختلـط بالمـاء قبـل أن تصـل إلى الـتراب، أراهـا زاهيـة في زيهـا المـدرسي، أسـمع صوتهـا وهـي تناجـي "عـلي" عـبر ذلـك الحائـط، أرى أصابعهـا متلهفـة للإمسـاك بكتـاب أهـداه إياهـا "عـلي"، أرى ضفيرتيهـا تتأرجحـان حـين ترقـص، أرى تمردهـا وأحـس بعنادهـا ذلـك الجميـل.

- مريم.

يأتينـي صـوت "النعيسـان" مـن خلفـي ولكنـي لا أقـدر عـلى الوقـوف وأمـشي.

- يا مريم، اعملي حساب الفي بطنك يا مريم.

ولا أملـك إلا صمتـي وخطـواتي تلـك الهاربـة وأمـشي وأمـشي ولا

يملـك "النعيسـان" إلا متابعتـي، هـا هـي "منـى" تهـرب مـن حياتهـا وتختـار هـذا الاحـتراق، يـا لهـذا الاختيـار الصعـب، لا أملـك حتـى دموعـي تجـاه هـذا الاختيـار، دواخـلي تـصرخ وأنـا أمـشي، موقـف اللـواري القديـم، أتجـه يمينًـا، "النعيسـان" يتبعنـي، أحـس بخطواتـه تبـكي خلفـي، زريبـة العيـش، تلـك الطواحـين الهامـدة في هـذا الليـل الكئيـب، دموعـي تتمانـع عـلى دواخـلي، أحـس بهـا تـصرخ.

- مريم.

أسـمعه ولا أسـمعه، يركـض "النعيسـان" خلفـي، يلحـق بي، يمسـك بكتفـي محـاولًا إيقـافي عـن المـشي، أنفلـت منـه وأمـشي، يلحـق بي مـرة أخـرى ويمسـكني بقـوة ويهـزني بعنـف.

- يا مريم، كفاية.

أنفلـت منـه مـرة أخـرى، أنـا أعـرف هـذه اللحظـة لا أملـك فيهـا إلا خطـواتي الهاربـة، يعـترض "النعيسـان" طريقـي ويقـف أمامـي واضعـا يـده عـلى كتفـي، نظـرت عميقًـا إلى عينيـه تلـك التـي كانـت تتوسـل إليَّ

- مريم، ارتاحي، بعدين اعملي حساب الفي بطنك دا.
- النعيسان أنا لازم أمشي.
- ماشة على وين يا مريم؟
- ما عارفه، خليني.

وأتجـاوز "النعيسـان" وأطلـق خطـواتي نحـو لا هـدف، لا أدري وجهتـي ولكنـي أمـشي ولا يملـك "النعيسـان" إلا أن يتابعنـي ويتبعنـي، أمـر ببعـض البيـوت المتهدمـة بفعـل خرطـة مصلحـة المسـاحة الجديـدة، نبـاح كلاب تركـض خلفنـا، "النعيسـان" ورائي، وأمامـي تلـك الظلمـة الكثيفـة التـي اختـارت "منـى" أن تحـترق فيهـا، أدخـل زقاقًـا وأخـرج منـه لأدخـل زقاقًـا آخـر وأخـرج منـه لأدخـل في آخـر، أعـرف، تمامًـا هـذه الرغبـة الحارقـة في أن أمـشي وأحـس بدواخـلي مصمتـة لا تحتمـل هـذا التعبـير الإنسـاني، البـكاء، عجـزي عـن البـكاء دائمًـا يحرض خطـواتي عـلي المـشي، أحـس بدواخـلي تـصرخ وأنـا لا أسـتطيع البـكاء، أشـعر بتبلـد عاطفتـي، أحـس بنـوع من ذلـك الخـواء الغريـب، خطواتي تحـاول أن تهـرب مـن ذلـك الحيـاد، الحيـاد تجـاه هـذا الحـدث، لا، لسـت محايـدة ولكنـي لا أملـك حتـى دموعـي، دموعـي التـي تجفـوني الآن، تتمانـع عـليَّ، خطـواتي تحـاول دائمًـا الهـروب مـن هـذه الحالـة، عـادة مـا أفعـل ذلـك حـين أحـس بـأن دموعـي تمـارس عصيانهـا عـليَّ، خرجـت مـرة في ظهـيرة غائظـة مـن المنـزل وأنـا في هـذه الحالـة، واقعـت خطـواتي كل دروب البلـدة ولم أعـد إلى المنـزل إلا في بدايـات الليـل، كنـت وقتهـا متزوجـة مـن "جـاد المـولى"، ذلـك الوغـد الخبيـث، كنـت قـد عـدت في تلـك الظهـيرة مبكـرة مـن المدرسـة، ليسـت كعـادتي فوجـدت "جـاد المـولى" يفعلهـا مـع أحـد الصبيـة، صدمـت، تملكتنـي حالـة دواخـلي المصمتـة، خرجـت مـن المنـزل، تقـودني خطـواتي نحـو اللاهـدف، كنـت أمـشي وأحـس بالـصراخ في دواخـلي يتنامـى دون أن تسـتجيب دموعـي لهـذا الـصراخ، مشـيت كل ذلـك الوقـت دون توقف مـن مـكان إلى آخـر، مـن شـارع إلى زقـاق، أحمـل عـبء خيبتـي كأنثـى وقادتنـي خطـواتي إلى الرجـوع في بدايـات الليـل ولم أدخـل البيـت إلا

حين استجابت دموعي فجأة لصراخ دواخلي فاستندت إلى الباب الخارجي للبيت وبكيت وعندها خمدت خطواتي، "منى" الآن قذفت بي إلى تلك الحالة، ها هي السلخانة، أتجه بخطواتي يسارًا كي أخرج إلى الفسحة وراء السلخانة.

- مريم.

النعيسان ما زال يتابعني، ألتفت إليه.

- النعيسان، أنت ارجع خليني.
- أفو يا مريم، دي تجي كيف؟ نرجع سواء.
- خليني يا النعيسان، ما بقدر أرجع هسه.

يا لهذا الظلام الكثيف، أترك السلخانة ورائي وأدخل في فضاء الفسحة الأسود، "النعيسان" يمشي بجانبي وكأنه يحميني من نفسي ومن كل هذا الظلام، تري من يحميني من عصيان دموعي في هذه الليلة؟ الليلة التي احترقت فيها "منى"، يا لهذا العذاب الذي قذف بي إلى هذا الخواء، حتى ذاكرتي لم تعد تطاوعني كي أتشبث الآن بملامح "منى"، تهرب مني ملامحها بين توهج اللهب، لا تلتمع في ذاكرتي الآن إلا تموجات اللهب وتضج فيها صراخات "علوية"، صورة الحجرة التي احترقت فيها تلوح لي بين لحظة وأخرى، بل، بين كل خطوة وأخرى في هروبي من حالة كوني مصمتة الدواخل.

- مريم، ارتاحي، يا مريم ما معقول كده، بعدين أنتِ ناسه

إنـك حامـل وتقيلـه؟ أرتي لي روحـك دي شـوية، هيـي روحـك خليهـا، أرتي لي جنـاك الفـي بطنـك دا، سـمح يـا مريـم، اقيفـي شـوية، إنجمـي، بعديـن امـشي.

أسـمعه ولا أسـمعه، "النعيسـان"، تابعـي هـذا الهميـم في مشـواري هـذا المقلـق، نتجـاوز الفسـحة ونصـل إلى الشـارع المـردوم الـذي تسـافر عليـه العربـات مـن وإلى البلـدة، نتعـدى ذلـك الشـارع متجهـين إلى حيـث المقابـر، يتبعنـي "النعيسـان".

- براحة يا مريم.

خطـواتي تهـرول، أحـس بـصراخ دواخـلي يتكاثـف، أتجـول بـين القبـور و"النعيسـان" بالقـرب منـي، خطـواتي تتجـول بـين أولئـك المـوتى في ذلـك الليـل الدامـس الـذي احترقـت فيـه "منـى"، دواخـلي تصـارع صراخهـا الكثيـف، أبحـث بـين القبـور عـن قـبر "عـلي"، يعـرف "النعيسـان" مقصـدي.

- دايرة قبر علي يا مريم؟

- آي.

قلتها حادة وملحة.

- تعالي بي جاي.

وقـادني "النعيسـان" مـن يـدي واتجـه بي في الاتجـاه المعاكـس، وصلنـا إلى القبـور التـي في الطـرف الآخـر، "النعيسـان" يمسـك بيـدي

ونحـن نتجـول بـين القبـور، كثيـف هـذا الظـلام المتحالـف مـع المـوت، وقـف "النعيسـان" أمـام قـبر "عـلي"، تـرك يـدي، تحسسـت حالـة دواخـلي تلـك المصمتـة وهـي تجـادل صراخـي المكتـوم فيهـا، جلسـت عـلى ركبتـي ووضعـت كفـي عـلى تـراب القـبر وقذفـت تجـاه ذلـك الظـلام الكثيـف بصرخـة مشـحونة وعاليـة التوتـر وبكيـت، بكيـت وانهمـرت دموعـي مبللـة تـراب القـبر، و"النعيسـان" جلـس القرفصـاء الحزينـة وصـوت بكائـه المكتـوم والمتقطـع يتوافـق مـع ضربـات عصـاه عـلى الأرض.

10

أتحسس بأناملي الدوائر الجلدية الثلاثة و"البنقز" يرتاح بين فخذي، أنقر نقرات سريعة متتابعة، أحاول فيها أن تمتص النقرات حركات أطراف "علي" وهو ممدد على السرير، ينظر إلى السقف ويحرك يديه ورجليه في حركة تبدو نشطة، هأنذا ألوذ الآن وفي هذه الظهيرة برغبتي في الدخول في سرداب حالتي الإيقاعية، أحتاج الآن إلى هذا السرداب الحميم الذي يجوهر انفعالاتي، ينثرها من بين أصابعي وهي تنقر على "البنقز".

لست وحدي، الآن معي ابني "علي"، جاء "علي" إلى هذا العالم المشحون بالتوتر والشعور بالفقد وتلك الوحدة القاتلة، جاء إلى هذا العالم متخطيًا كل تلك الأحزان المتراكمة، حملته ومعي "النعيسان" كعادته حين يتحالف مع مشاويري الغريبة، حملت ابني "علي" ونظراته الطفولية تبحث عن معنى خطواتي في ذلك الصباح الباكر، "النعيسان" كان يعرف رغبتي تلك، لذلك جاءني مبكرًا في ذلك الصباح، أصابعي تتحسس أفكاري تلك الصاخبة في الدواخل، أنقر مقتربة من إيقاع "المردوم" وأراني، أحمل ابني "علي" في ذلك الصباح، يرافقني "النعيسان" الذي قرر فجأة أن ينغم تلك الخطوات التي تنتمي إلى حياة جديدة، لكنها، تتجه نحو ذلك الحد الفاصل بين الموت والحياة، كانت خطواتنا برغم

احتفائها بالطفولة إلا أنها تتجه إلى المقابر، قرر "النعيسان" أن ينغم خطوات هذا الصباح، يرافقني بخطواته الحميمية وأنا أحمل ابني "علي" بين أحضاني، يرافقني منشدًا بصوته العذب، تذوب أصابعي وهي تنقر على "البنقز" في نسيج غناء "النعيسان" المنسجم مع خطواتنا، أتداخل مع ذلك الغناء المتسرب من ذاكرتي بنقراتي تلك التي تمتلك الآن قدرة أن تدمج بين الأزمنة والأمكنة، أتداخل مع صوت "النعيسان" وعيوني تتابع حركات "علي" الممدد على السرير واهبًا فضاء الغرفة المبهرج بذبذبات الإيقاع صوت مناغاته بين لحظة وأخرى، أنقر على "البنقز" منتمية إلى ذلك الشجن الممتد في غناء "النعيسان".

"درب روح

درب غرقان

وتايه جوا

في العتمة

بداية السكة

جوايا

ونهاية السكة

ودايا

وقميرة السعد

راجياني

على البلد

البقت ضلمة".

أنتقـل بالإيقـاع مـن عذوبـة غنـاء "النعيسـان" وأتابـع حـركات "عـلي" النشـطة عـلى السريـر، أتابعهـا بنقـراتي عـلى "البنقـز" وأحـس بانتـمائي الوثيـق إلى الحيـاة، تلـك الحيـاة المشـحونة بـكل التفاصيـل، أحزانهـا، أفراحهـا، مـن فقـد ومـن جـاء إليهـا، مـن اختـار الهـروب ومـن تماسـك، أنقـر، أنقـر، وأراني و"النعيسـان" نقـف في ذلـك الصبـاح الـذي خرجـت فيـه مـن حبسـة الأربعـين يومًـا، نقـف أمـام قـبر "عـلي" وفي أحضـاني ابنـي "عـلي" الـذي أسـميته "عـلي" هـذا الصديـق النـادر والـذي خطفـه مـن حياتنـا المـوت المفاجـئ والمبكـر، ولكنـي برغـم ذلك أملـك قـدرة أن أتحـدث معـه، أعـرف أنـه يسـمعني، أحـس بذلـك، أحـكي لـه عـن كل مـا يحـدث عـن تفاصيـل تلـك التحـولات في مملكـة الأحـلام، أخـبره بتفاصيـل حيـاتي تلـك المتوتـرة إلى درجـة الصـدام مـع أحلامـي ورغبـاتي واشـتهاءاتي وطموحـاتي، كنـت أتحـدث مـع "عـلي" و"النعيسـان" يتابـع حديثـي ذلـك بشـغف غريـب، اسـتطعت أن ألمـح دمعـة في عيونـه تلـك الأليفـة، لم أنـس في ذلـك اليـوم أن أقـف أمـام قـبر "منـى"، تلـك التـي اختـارت أن تتوهـج وهـي في طريقهـا إلى موتهـا المعلـن والمختـار، تحدثـت أيضًـا مـع "منـى"، هأنـذا الهـث خلـف نقـراتي عـلى "البنقـز" في هـذه الظهـيرة، تـرى، لمـاذا حرضتنـي هـذه الظهـيرة للدخـول إلى سردابي الإيقاعـي؟ إلى حالتـي تلـك التـي أحـس بهـا وأنتمـي إليهـا برغبـة تلقائيـة لا أملـك إلا تنفيذهـا.

أتابـع حـركات "عـلي" الممـدد عـلى السريـر، أحـس بـه يغفـو وتبـدأ حركاتـه ومناغاتـه الحبيبـة تهمـد رويـدًا رويـدًا ونقـرات أصابعـي عـلى

"البنقـز" تمتـص غفوتـه، يغمـض عينيـه ويدخـل في النـوم والإيقـاع يتـسرب مــن بــين أصابعــي بطيئًــا خافتًــا ومتلاشــيًا وذاهبًــا نحــو الصمـت، أزيـح "البنقـز" مـن بـين فخـذي، أضعـه عـلى السريـر بالقـرب مـن "عـلي" الـذي نـام، أنحنـي عليـه وأضـع عـلى خـده قبلـة حميميـة وأخـرج بهـدوء مــن الغرفـة، أتجــه نحـو المطبـخ، يمتلكنــي شــعور غريـب بالرضـا، دائمًـا مـا تقـذف بي الطفولـة إلى هـذا الشـعور، دائمًـا، كنــت أحــس بأنوثتــي كاملــة وأنــا أرضــع أطفــالي، الشــعور بالأمومــة هــو جوهــر الأنوثــة، أتذكــر طفولــة "عــادل" و"بثينــة" وأحــس إننــي أسـتعيد قـدراتي في هـذه الحيـاة وأنـا أرضـع الآن "عـلي" ذلـك الطفـل الـذي لم يـره والـده حتـى الآن، آه، "عبـد الباسـط"، لم أعـد أسـمع عنـه أو منـه شـيئًا منـذ أن تـرك البلـدة ولا أحلـم حتـى بمجـرد رؤيتـه، أنـا أعـرف "عبـد الباسـط" تمامًـا، لـن يعـود إلى البلـدة وهـو يحمـل في داخلـه ذلـك العـبء الثقيـل، عـبء الهزيمـة وعـبء الشـعور بعـدم الكرامــة، لا يهــم فأنــا أســتطيع أنــا أتحمــل حيــاتي وحــدي، أشــعل ســيجارة وأنــا أخــرج مــن المطبــخ، هــا هــو العــصر تبينــت ملامحــه مــن خــلال الظــلال، أتجــه نحــو عنقريــب الراكوبــة، أســتلقي عــلى العنقريـب متلـذذة بسـيجارتي، أتلمـس شـعورًا خفيًـا وخافتًـا في صمـت العصريــة المقلــق، نظــراتي تمســح "البنابــر" المتناثــرة وأهــرب منهــا إلى ذلــك الصمــت الغريــب الــذي ســكن بيــت "حــاج عثــمان" بعــد أن رحلـوا مـن هنـا، بـل، مـن البلـدة نفسـها بعـد انتحـار "منـى"، منضـدة النجــارة أمامــي معلنــة كل تلــك الكآبــة.

جــاءني "حامــد" في إحــدى الأمســيات، جــاءني خجــلًا وطلــب منــي أن أعـيره أدوات النجـارة التـي كان يعمـل بهـا "عبـد الباسـط"، فرحـت

جدًّا بهذا الطلب وأخذ "حامد" تلك الأدوات وهو الآن يعمل بها في ورشة صغيرة داخل منزله، أتابع حلقات الدخان الصغيرة وهي تتسرب من السيجارة التي بين أصابعي هاربة من معاني الوحشة والكآبة التي تسيطر على دواخلي كلما وقعت عيناي على ترابيزة النجارة، أفكر في إبعادها من الراكوبة وأضعها خلف قطيفة المطبخ، أتراجع عن تنفيذ هذه الفكرة وكأني أحس بحاجتي إلى ذلك الشعور بالفقد، فقدي إلى ذلك الرجل الذي تحسس وأشعرني بأنوثتي تلك البكر، أطفئ سيجارتي بدعكها في التراب، أستلقي تمامًا على ظهري، أحاول أن أدخل غفوتي لو أمكن ذلك، أغمض عيوني مستعيدة تلك الغفوة، أغير رأيي وأقرر أغفو بالقرب من "علي"، أملأ نظراتي منه وأغمض عيوني داخلة بهدوء شفيف نحو منطقة نومي، أغفو منحازة إلى الشعور بالرضا وأنتمي إلى هذه الطفولة وأصفو مستسلمة لنومي.

ها هي "البنابر" تحتفي بالجالسين عليها، دائمًا ما يأتون إلى مملكة الأحلام، حين تجادل عتمة الليل الدروب، يأتون، منهم من يأخذ طلبه ويخرج ولكن دائمًا ما يبقي أولئك الأصدقاء الدائمون، أفتقد في هذه اللحظة "عثمان أبو وجعة"، تأخر هذا اليوم، دائمًا ما كان يأتي أول الحاضرين، كعادته، حتمًا سيأتي، ها هي الأصوات الحميمة تتناثر في هذا المكان الذي دائمًا ما تحتله تلك الوحشة في النهارات المملة والعصريات القلقة والليالي الفارغة، ها هو المكان يضج بالحيوية وتتناثر "البنابر" في ذلك الحوش، منفردة في حالات ومجتمعة في حالات الشلة، خاصة شلة شباب الحي، أولئك الذين يحسون بي ويحترموني خارقين ذلك الانطباع السائد الذي عادة ما

يلتـف حـول هـذه المهنـة التـي اخترتهـا بمحـض إرادتي مدفوعـة بتمردي ذلـك المعلـن ومنحـازة إلى كفـاح أمـي تلـك التـي أحبهـا أمـام هـذا العـبء الأخلاقـي، "عـلي" ابنـي يرقـد عـلى العنقريـب الصغـير الـذي وضعتـه قريبًـا جـدًّا مـن شـجرة الليمـون الصغـيرة، أحـس بهـا تنمـو، تلـك الشـجرة التـي كانـت ترويهـا "منـى" بدمعتهـا تلـك المختلطـة بالمـاء.

أجلـس عـلى ذلـك "البنـبر" العتيـق، أوزع نشـوتي عـلى المـكان وأحتفـي بـكل ذلـك الحضـور الحميـم، أتلـذذ بسـيجارتي، "حمـد الجـزار" يفرقـع ضحكاتـه وهـو يتسـامر بصخـب معلـن مـع "عمـر"، "عمـر" أخـيرًا تمـرد عـلى عطالتـه واسـتطاع أن ينفـذ فكـرتي في أن يعيـد الحيـاة إلى كشـك المرطبـات الـذي كان يعمـل فيـه "عـلي"، لذلـك أراه وقـد اكتسـت ملامحـه نوعًـا مـن تلـك البشاشـة، قبلهـا كانـت ملامـح وجهـه جامـدة وتحـس بعيونـه محتلـة بكثافـة الهمـوم، أخـيرًا اسـتطعنا أن نسـمع ضحكـة "عمـر"، "رمضـان" في ذلـك الركـن القريـب مـن المطبـخ، صامـت يتـذوق نشـوته التـي تتسـرب رويـدًا رويـدًا مبدلـة حالـة حزنـه المزمـن إلى ابتسـامة خفيفـة عـلى شـفتيه كأنـه يخـاف مـن محاولتـه أن يفـرح، "خـضر" ابنـه لم يـأت هـذه المـرة معـه، سـألت عنـه وعرفـت أنـه تركـه مـع أطفـال الجـيران، شـلة شـباب الحلـة أصواتهـم الحميمـة تعلـو، دائمًـا مـا يقـود "عصـام" هـذه الضجـة بصرخاتـه وتعليقاتـه السـاخرة حينًـا والتـي عـادة مـا يبحـث فيهـا عـن كل مـا يحـرج صديقـه "عابديـن" محيـلًا إيـاه إلى شـخصية مثـيرة بعـض الشيء، إلى موضـوع نكتـة أو حادثـة تسـتدعي سـخرية "عصـام"، يـا لهـم مـن حميمـين هـؤلاء الشـباب، أحيانًـا يميلـون إلى غنـاء رومانـسي وجميـل،

يتبادلـون قـراءة الأشـعار ويتبادلـون الكتـب ويتناقلـون الحكايـات مـن خـلال اهتماماتهـم تلـك الأليفـة، أميـل أحيانًـا إلى الجلـوس معهـم، يطلبـون منـي أن أغنـي وأنـا أعـزف عـلى "الدلوكـة" فـلا أبخـل خاصـة في الليـالي ذات الصفـاء وأحيانًـا أحـكي لهـم عـن تجـاربي في مجـال عمـلي كمدرسـة ويتحسسـون مـن خـلال تلـك التجـارب تمـردي ويحتفـون بي وبعنـادي الـذي جعلنـي أديـر هـذه المملكـة، مملكـة الأحـلام، كـما يطلـق عليهـا "عـلي"، هـا هـي أصواتهـم تعلـو وأنـا أحـس بأننـي هـذا العـالم الصغـير، أحـس بـأني أديـر مدرسـة لا تتقيـد بمناهـج وزارة التربيـة والتعليـم تلـك التـي جفوتهـا بمحـض إرادتي وانتميـت إلى "إندايـة" أمـي.

- سلام يا ناس.

ويسـتقيل كل الحضـور المتناثـر في ذلـك الحـوش الـذي يتألـف مـع حيويـة كل هـذا الوجـود، يسـتقيل ذلـك الحضـور تحيـة "النعيسـان" ذات الحميميـة والحـرارة العاليـة بمـا يشـبه الهتـاف الصاخـب ويقـذف "النعيسـان" بعصـاه عـلى الأرض ويقـترب منـي وأنـا جالسـة عـلى ذلـك "البنـبر" العتيـق، يقـترب منـي صائحًـا بفـرح:

- الليلـة لمينـي في حامـد وصفارتـو عشـان أغنـي ميـل وعـرض كـتر أمـراضي.

- حفظتها يا النعيسان؟

- حفظتها بس؟ أنا هسه جاي بيها من الحلة الورانية.

واتجـه "النعيسـان" نحـو العنقريـب الـذي يرقـد عليـه "عـلي"،

حملـه بـين يديـه ولاعبـه قليـلًا وأعـاده إلى مكانـه.

- مريم، وين عثمان أبو وجعة؟
- ما جاء لحدي هسه.
- سمح، خلاص اديني مرتبي.

"حمـد الجـزار" ينـادي "النعيسـان" كي ينضـم إلى مجلسـه، يتحـرك "النعيسـان" إلى هنـاك، حتـمًا سـيحرض "حمـد الجـزار" "النعيسـان" عـلى الغنـاء، أحمـل نصـف زجاجـة العرقـي، المرتـب الـذي طلبـه "النعيسـان" وأتحـرك نحوهـم.

- أبو وجعة دا، مالو الليلة.
- بجي هسه.
- الليلة عندنا حصة.

"عثـمان أبـو وجعـة" يحـاول أن يخلـص "النعسـيان" مـن أميتـه وقـد قطـع شـوطًا بعيـدًا في تلـك المهمـة السـامية، أسـاعده أنـا أحيانًـا، "عبـد القيـوم" أيضًـا يسـهم في هـذه المهمـة، "عبـد القيـوم" سـافر هـذه الأيـام إلى الشـمالية، تفتقـده مملكـة الأحـلام ونفتقـد كلنـا همتـه العاليـة تجـاه أي مـشروع مثمـر، قبـل أن أجلـس عـلى "البنـبر"، دخـل "حامـد" وانضـم إلى المجلـس.

"عـلي" يدعـوني إليـه ببـكاء مفهـوم، أذهـب إليـه، أحملـه وأرجع إلى جلسـتي، صيحـات الشـباب تعلـو متحالفـة مـع نسـائم سـبتمبر، أرضـع "عـلي" وأضمـه إلى صـدري وأحـس بـأن حيـاتي لهـا قيمـة، قيمـة كبـيرة،

"علي" يستغرق في الرضاعة وأنا أستغرق في ذلك الصخب المتناثر في المكان وأحس بنشوتي العارمة تجاه هذه اللحظة، "حامد" يبدأ في شرخ عتمة الليل ويمنح نسمة الصيف أنغامًا تلقائية وهو يحاول السيطرة على منافذ الهواء على الصفارة التي تحرض على الشجن والحنين، أحس مع تلك الأنغام بنشوة خاصة و"علي" يمص حليب الحياة مدغدغًا حلمة ثديي، أحس بأني أمتلك كل العالم، أسمع "حامد" يقول محرضًا "النعيسان":

- أها، يا النعسيان، أنا جاهز.

وقبل أن أتحرك يأتيني "عمر" مسرعًا ويأخذ "البنبر" الذي أجلس عليه ويذهب به إلى حيث يجلسون، بين يدي "علي"، دافئ في حضني دون أن يترك فمه حلمة ثديي التي تهبه خطواته نحو الحياة، أجلس بالقرب من "حامد" الذي يضع الصفارة على شفتيه وأصابعه على تلك الثقوب في وضع استعداد خاص كي تندمج النغمات مع صوت "النعيسان" الذي كان قد أخذ نفسًا عميقًا كي يدخل عوالم الشاعر "خليل فرح"، تلك الثغرة والشفيفة وانطلق صوت "النعيسان" مانحًا عذوبته تلك اللحظة.

"ميل وعرض كتر أمراضي

بي هواكم والهوان راضي

جن ليلي وهاجت أعراضي

سح دمعي وطاشت أغراضي

هذا بعض البي عدا أمراضي

وأنت داري وغاضي ماك راضي".

والتـف كل الحضـور حـول ذلـك المجلـس، اقـترب كل الحاضريـن من حيـث يشـدو "النعيسـان" ويعـزف "حامـد" عـلى الصفـارة متداخلًا مع صـوت "النعيسـان"، تـرك أولئـك الشـباب أصواتهـم العاليـة والصاخبـة وهمـدوا ملتفـين حـول عذوبـة ذلـك الغنـاء، اقـترب "رمضـان" مـن ركنـه يحمـل زجاجتـه وجلـس منتميًـا إلى الأرض، "عـلي" مـا زال يدغدغ حلمـة ثديـي مانحًـا إيـاي كثافـة الشـعور بالحيـاة والخصوبـة.

"بالي جسمي ومن زمان قاضي

ها هو حبك بين انقاضي

هدي روعك اوعى لا تقاضي

ما بشارعك ما بكوس قاضي

المضلل رشدي يا هادي

والمكتر في الغضا سهادي".

"عثـمان أبـو وجعـة" يدخـل مهـرولًا، مرعوبًـا، لاهـث الأنفـاس، مبلـلًا بالعـرق، رغـم نسـمات أمسـيات سـبتمبر، صائحًـا في الجميـع:

- فرتقوا، فرتقوا سريع يا اخوانا.
- في شنو يا عثمان؟
- اتخارجوا، اتخارجوا سريع.
- في شنو يا أب وجعه؟

- ما تقول في شنو يا عثمان.

ومن بين أنفاسه اللاهثة يصيح "عثمان أبو وجعة":

- أنتو ما سمعتو؟ أنتو قاعدين وين؟ النميري أعلن تطبيق الشريعة الإسلامية، فرتقوا يا اخوانا، الجماعة المهوسين ديل طالعين في مظاهرات تأييد وممكن يدخلوا علينا هنا، فرتقوا يا اخوانا.

أضم طفلي في حضني كأنني أحتمي به، في حين يتأهب الجميع للخروج والتسلل من مملكة الأحلام، "النعيسان" صمت وتلاشى ذلك البريق الحي والمتوهج من عينيه، "عثمان أبو وجعة"، خرج يستكشف الشارع وعاد سريعًا إلى الداخل.

- النعيسان، ادخل جوه، مريم أنتِ برضو.

ودخلنا غرفتي، خرجت أجمع الزجاجات والأكواب المتناثرة في الحوش، بعد أن وضعت "علي" على السرير، صمت رهيب، "النعيسان" ينقر بعصاه على الأرض بقلق غريب، "أبو وجعة" يقذف وبعصبية شديدة وملاحظة جرعة كبيرة من العرقي في جوفه وأحس بارتجاف جسمه واضحًا حين ابتلع تلك الجرعة، أصوات هتافات تقترب"

"لا شرقية ولا غربية

إسلامية مية المية".

لا يملك "النعيسان" إلا تلك النقرات القلقة التي تحدثها عصاه على الأرض، تقترب الهتافات المتشنجة وتبتعد رويدًا رويدًا، ويدخل

"عثـمان أبـو وجعـة" منطقـة نشـوته بعـد عـدد مـن الجرعـات السريعـة، تتـلاشى الهتافـات ويقـف "النعيسـان" ويخـرج مـن الغرفـة، أخـرج معـه، أقـف أمـام الغرفـة ونظـراتي تتجـول في وحشـة وكآبـة وفـراغ الحـوش.

- تصبحي على خير يا مريم.

قالهـا "النعيسـان" بـكل أسى وخـرج، أتأمـل هـذا الفـراغ الكئيـب وأحـس بـأني محـاصرة مـن جميـع الجهـات، أحـس بذلـك الخـوف عـلى كل مـا هـو آت، أخـاف مـن ذلـك الـذي سـيأتي غـدًا، أدخـل الغرفـة لأجـد "عثـمان أبـو وجعـة" وقـد تـرك السريـر وجلـس عـلى الأرض داخـل الغرفـة وبـدأ يمسـح عـلى الأرض، نظـرت إلى "عـلي" الراقـد عـلى السريـر مسـتمتعًا بحركـة أطرافـه النشـطة، تحركـت نحـو "البنقـز"، وضعتـه بـين فخـذي، نظـر إلى "عثـمان أبـو وجعـة" بعمـق وقـذف أمـام كل مخـاوفي تلـك التـي تسـاكن الآن دواخـلي، قـذف "أبـو وجعـة" نحـوي بهـذا السـؤال:

- وبعدين يا مريم، يعني مملكة الأحلام حتنهار؟

ولم أملــك إلا أن أدخــل سردابي الإيقاعــي، أدخــل حالتــي تلــك وأصابعـي تنقـر عـلى "البنقـز" محاولـة إمسـاك بإيقـاع يعلـن عـن كل هـذا الارتبـاك، أنقـر وأنقـر وعيـوني تهـرب باحثـة عـن مخـرج في عيـون "عـلي" الـذي بـدأ يناغـي وكأنـه بذلـك يجـادل تجليـات مـا سـيحدث في أيامـه القادمـات، أنقـر، أحـاول امتصـاص هـذا الارتبـاك مـن خـلال تحسـس أصابعـي لإيقـاع مجهـول وحـين نظـرت إلى أصابـع "عثـمان

أبـو وجعـة" وهـي تكتـب عـلى الأرض التـي مسـحها بيـده اليـسرى، قـرأت هـذه الجملـة "يـا لهـذا الظـلام الكثيـف".

نظـرت عميقًـا إلى عيـون "عـلي" وأصابعـي تحـاول أن تتحسـس مداخـلي إلى إيقـاع مجهـول وغامـض.

كادوقلي 1983 – القاهرة 1998

Willows House
منشـــورات
ويلوز هاوس